سَعادةُ إلاّ رُبع

رواية

بسم الله الرحمن الرحيم

ISBN: 978-9969-516-01-2 الطبعة الأولى

الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2023

عنوان الكتاب: سعادة إلا ربع. المؤلف: سارة محمد معريش

إخراج : محمد أمين شلابي. تصفيف/ تنسيق: صلاح الدين رقيق.

تدقيق: روان عبد العزيز. تصميم الغلاف: سمير محرز

الناشر/ دار الكاتب الجزائري. المدير العام/ عماد الدين عمي.

الموقع الإلكتروني: KATEB.ELDJAZAIRI23@gmail.com

هاتف/ فاكس: 0674806143 . واتساب: 0674806143

مقر الدار: دار الكاتب الجزائري حي 468 مسكن جسر قسنطينة -الجزائر-

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

رواية

سَعادةٌ إلَّا رُبع

سارة محمّد معريش

الإهداء:

إليكَ أنت...

الفـقيد المجهول

" رحمك الله"

وإلى الذي افتقدته لما فقدك:

" مــصحّح حرفي "

إلى الرّاسخة في الحبّ: حجيلة

إلى صويحباتي في مصلّى النّور

وإلى كل من سألقاه في النّهاية الجميلة التي لن تنتهي

في دار الخلود والحقّ والسّلام.

توطئة:

هذه الرّواية ليس لها زمن، إذ أنّها تأخذ من الماضي كلّ جذوة خامدة لتجعلها قبسا من نار تحرق به المستقبل بدلا من جعله يتوهّج ، وليس لها مكان فهي تعشّش بين الأفكار وتقيم عليها صرحا تبلغ به الهذيان... وليس فيها شخصيّات، فما الأسماء الواردة في النّص إلا نماذج لبشر يعيشون معنا أو يعيشون فينا أو يعيشون بنا أو حتّى على أكتافنا.

لا أرجو أن تعجبك كلماتي بقدر ما أرجو أن تُعجَب هي بفهمك وإسقاطك لها على الواقع، دون سقوط المعنى أو الإطاحة بالدلائل، عندها فقط سأصفك: "بعزيزي القارئ" الذي يبحر في مضمون السطور ولا يخفى عليه ما خلفها.

لطفا بعمقِ المغزى... فقد سئم بَوْحي من بشاعة التّأويل

المُصادفةُ المقدَّسة

(1)

الرّابع والعشرين من يوليو ...

سنة عقيمة ... ونصف سنة أخرى تقتبس التّواريخ من الماضي بتصرّف آثم، غادر فيها الحبّ من عالم التّجريد وأضاع دربه قبل أن يتجسّد في الواقع ، عبثَ بالمنطق ولم يسمح لي حتّى بجدليّة أركب فيها المواقف المتضادّة أو المتقابلة، تعثّرتُ بالكثير من القصائد والرّسائل التي لم ترسل ومكثتُ عند لوحة المفاتيح التي تشهد نهاياتٍ عديدة دون شرف بداية واحدة.

تتخبّط التّنهيدات في قفص صدري، فأبقيها مسجونة كغصّة ... كقصّة، كمرآة لا تعكس ملامح شوقي ولا تهذّب ألفاظ اللّيل التي يبقى أثرُ سوادها تحت العيون، أتنمّر على الذّكريات وأصفها بشرذمة لا تأثير لها على مستقبلي المشرق رغم كرم زيارتها... فهكذا نحن البشر نبخل بحنان مستعجل على من هم رحماء معنا ونبالغ بالعطاء لمن كانوا عونا ليأسنا وبُؤسنا.

أعود للمنزل ...

أترنّح بين ضفّة البقاء وصفة الشّقاء، أعالج خوف الموت بالموت الأكبر وأستمرّ في تصفّح الرّسائل مبتورة المعنى والحقائق مجهولة المصدر، وأكذب في عزّ صدقي ومصادقتي لنفسي التي تروي حكاية خيانتها لي معك ذات مساء.

أشعر أنّي مستودعٌ للكلمات المستعملة، أنفض عنها غبار النّطق كي أغلّفها ، أعلّبها، أرتّبها، ثمّ لا أحد يُتاجر بها غيرك فأنت تجيد المقايضة واللّعب على حبل الفواصل والنّقاط، غير أنّ نقطة نهاية الكلام سقطت منك سهوا وأنت تغادر عنّي مثل كلّ مرة... اِلتقطتُها، خبّأتُها حيث لا تصلها رياحُك اليوسفيّة، ثمّ غرستها وضعتها هناك على شرفة قدري التي لا يطلّ عليها القمر ولا ينتظر تحتها أحد، وبقيت أجهل ماذا أنتظر: تبرعمها أم عودتك!

أعود للبيت بعد يوم لا يسأم تكرار مشاهده الرّماديّة... أخابث نفسي بالرّاحة قبل إرهاقها المحتوم من جديد ثم أفتح حسابي: وكما هو متوقَّع لا شيء يُذكر ... ألم أقل إن الأيّام كافرة بديانة التّجديد!... غير أنّ التّخيّل جائز والحلم مباح والتوهّم مستحبٌّ.

كما ترى يا منيب ... كما تسمع ، تشعر، تحبّ وتريد... كلّهم لست أنا، عرفت ذلك من المزاج الذي يسامرني ويسخر من تقلّباتي وكأنّه لم

يُخلق من صلبك، وكأنّه لم يمارس عليّ سلطة التذبذب والتردّد حتى أصبحتُ كائنا مستباحَ الرّوح بقرارات هلاميّة أتخلّى عنها إن مرّ طيفك بين الأذان والإقامة.

أُصلّي العشاء ... وأنت كالعادة سجدة السّهو

كلّما أعلنتُ توبتي منك أذنبتُ أكثر، كلّما ابتعدتُ عنك أدنو أكثر... كلّ السّبل تتقطّع لتصبّ في كأسٍ من زمهرير أتجرّع منه ضياعي وأستطعم ما بقي من حطامي، وأقرعه في كأسٍ آخر من مرض الحمّى وأنينها والتعرّق في مضجعي، وكأنّي أشرب نخب المزاوجة بين ألم الرّوح والجسد.

لا أريد طعاما ولم يزرني النّوم بعد، يهجرني مرّات عدّة بخاصّةٍ عند ازدحام المكان بتلك المشاعر: الخوف، القلق، الحيرة، خيبات الأمل، الانتظار، لكن مهلًا؟ ماذا أنتظر؟ لا جديد يحدث ولا شيء لأجلي تحديدًا .

أتفقد الإيميل، عشرات الرسائل غير المقروءة، ثم أفتح حالات الواتساب المتراكمة: الحياة تسير بالخارج على ما يبدو وليس هناك ما يلفت الانتباه.

أغلقُ الهاتف.

أتّجه إلى الشّرفة وأنا أشعر بتسلّل الحمّى، كلّ شيء هادئ عدا الأصوات بداخلي، أحاول أن أكتب هذا الصّدى في نفسي المجوّفة، فتفشل جلُّ المحاولات نسبيّا: لا تعبير مناسب بخاصّةٍ إذا كنت لا أدري ما يحدث لي.

أحاول مشاهدة فلم كوميديّ جديد كي أضحك، أو كنوع من الإلهاء عن أعراض المرض، فأجدني أمرّر التّفاصيل وأقفز إلى النّهاية في الدّقائق الأولى لأنهيه كتصحيح أوراقِ امتحان طلبتي.

نسيتُ أن الضّحك هزّة للمشاعر تجعل حزننا يطفو، كأن تسخر من نفسك ثمّ تواسيها، كأن تكتشف غباءك ثم تندب تفكيرك، أو ربما هي ترتيب نادر تتصدّره شماتةُ العقل ويعقبه لوم النّبض...

لا أدري أمريح ذلك أم لا! لكنّ الضحك من شدّة القهر ليس جنونًا.

يتأزّم وضعي فأعود إلى فراشي ، ويعود بي هذيان الحمّى إلى أوّل يوم ...

إلى بداية نهايتي، إلى الزّمن الذي صُفعت فيه دون يد قاسية، كان لقاءً عاديا حدّ أنّ الصّحف في كشك عمّي الحواس لم تتطرق إليه

ولو تلميحا، ربّما في شهر نوفمبر يمجّد النّاس الحريّة الوطنيّة لا ذكريات الاستيطان النّفسي لامرأة جزائريّة من شاب عراقي.

هل كان نوفمبر شهر تعارفنا ؟

في ذلك اليوم اجتمعت سماء بغداد مع السّحب التي لا تقتنع بالحجاب في وهران وتفضّل أن تراود الأرض عن نفسها، لعلّ رائحة التّراب النديّة تتسلّل إلى لوحات الأقبية المخذولة وألوانها المحكوم عليها بالإهمال المؤبّد حتّى الموت.

كان نقاشا عند المغيب في مجموعة افتراضية على الفيس بوك، فالسّاعة في آخر النّهار تشير إلى سطوة الأفكار، ومع قُبلة الشّمس للجبال واحمرار وجهها خجلا تراسلني سائلا عن اسمي و تعنون سجلّا جديدا من التّاريخ للحضارة البابليّة التي ستقيمها بين نهر الاهتمام ونهر الغياب ... هذا هو المساء الذي يَجُب ما قبله من أمسياتي ويعطي لاسمي معنى:

- " أماسي" وأنت ؟ ... هكذا أجبتك...

هكذا عنونت ملفّي في قائمة تاء التّأنيث العاشقة التي رُبطت مصلوبة على جذعك، وما أطولها من قائمة! كطول المسافة التي

تفصلنا، كعدد الصّور المتبادلة بيننا، بعدد الضّحكات والتّسجيلات الصوتيّة بيننا، كلّ شيء جميلا كان بيننا حتى أنت، تحوّل بيني وبينك، فتقترب وتمنع عني الاقتراب، لكأنّك تحذّرني كي لا أكون مثلهنّ: تراني فراشة جديدة عليها أن تعرف أنّ لمس المصباح المتوهّج يعني موتها.

بعث لي سلاما بنكهة الشّمام، برائحة التّراب الذي يعانق المطر... كما ترى تعوّدت أن أجعل لكل شيء مناسبة أحتفي بها، غير أني أصنّف أوّل محادثة بيننا من مناسبات الخوف : من الاستمرار، و من التوقّف في الوقت نفسه.

لنقل إن يومي الأوّل معك فراق يتوجّس خيفة الظّهور، ثم أكملت بقيّة حياتي أزيلُ الرّمل عن مشهد ابتعادك تدريجيا ، بقيت أنتمي إليك وأتمنّى رؤيتك وأعتبر حبّك إيمانا والسير إليك برهانا.

أتخلّص من الذّكرى وأعود إلى حاضرٍ نكرة، أتصبّب فيه عرقا وأنا أتفحّم من الدّاخل، أشعر بلسعات عديدة في كياني وأنا أفرش شهد نوفمبر وعسل ذكريات المصادفة المقدّسة على هذه اللّيلة الصيفيّة الخانقة.

يبادلني السّقف التأمّل فأتمنّى صلابته ويتمنّى أن لا أغادره مثلما غادر فارس ورحلت جدّتي ... لذلك يلهمني بالقيام لتبريد نفسي بالكمادات المبلّلة.

لم تكن جدّتي -مّا خديجة كما يدعوها فارس- تغيب عنّا إلّا لأجل زيارة أضرحة الصّالحين.

كنت أعتبرها منهم، أتردّد على جبينها الموسوم بوشمٍ قديم بالعديد من القُبل آناء اللّيل وهي نائمة، وأطراف النّهار وهي تتأمّلني بحبّ، فأمشّط شعرها البرتقاليّ المصبوغ بالحنّاء التي جفّفت أوراقها وطحنتها بنفسها، وأصنع منه ضفيرة تنزل بين كتفيها.

صباحي بعدم تواجدها صباحٌ يثير تعكّر المزاج بدل استثارة الإيجابيّة والمباركات

هل سيأتي الصّباح؟

لا تقلق أيّها السقف، هذا الصّمت في غيابهما لن يقتلني فأنا متّ قبل اليوم، شهيدة الحرف، سبيّة القلم، منسيّة العهود، اغتالني الشّوق للرّاحلين وهم أمامي، وسالت منّي الكثير من الدّماء التي تلبس اللّوعة ودموع الفجيعة.

أجد نفسي كجذوة مشتعلة أتأوّه في مضجعٍ من الرّماد واللّيل يلقي بسواده على الذّكرى، بفؤاد كالمِجمر بين ألسن الحنين ولهيب القرار وسعير المنتصف الذي لم ينصف تيهي

أفكلّما نضجت المسافة بيننا تعمّدتَ أن تبدلها جلدا غير جلدها لتصبح مسافةً أكبر لا تقاس بالأمتار بل تتّخذ من ذريعة الأقدار وحدة مرجعية ؟ كأنْ أتقلّب في مكاني محمومة وأقول: بيننا ثلاثةُ أقدار وتسعون ذكرى وأمنيةٌ تتعاظم.

تسعة وثلاثون فاصل أربع درجات ...

رقم جديد في جهاز قياس الحمّى، وأنت الذي علّمتني لغة الأرقام، علّمتني كيف أحتسي الأعداد في الاقتصاد وكيف أبزقها على السّياسة، كيف يرتشفها التّاريخ وكيف تنفثها الجغرافيا... علّمتني أعدادا خياليّة أجهلها وقلت إنّها المجموعة الكبرى التي تحتوي الأعداد الحقيقة، يومها فهمت أن الخيال حضن كبير والحقيقة الصّغيرة ترتمي فيه وجعا من واقعها المرير.

لعلّنا مثل الأعداد يا منيب، يتأبّطنا الخيال والهذيان خوفا علينا من واقعنا

تسعة وثلاثون فاصل درجتين...

يقول الجهاز إنّ الحمّى بدأت تنخفض، ربّما كان من المفيد وضع الكمادة الباردة لكن رأسي يتثاقل أكثر فأكثر، وأفكاري مشتّتة... وعقلي اتّخذ من الماضي وجهة له ولا أدري أين سيحطّ الرحال.

تسعة وثلاثون ...

هو رقم ترتيبي في قائمة انتقامك، فعلتَ معي ما فعلتْه هي بك... وستستمرّ في جعل البنات يحببنك ثمّ ترحل عنهنّ.

هل أنت هكذا حقا؟

تتصوّر أنّي أفهمك بينما أعيشُ السّواد نفسه من حولك، تتخيّل أنّ كلماتي تجبر روحك بينما هي أجزاء تكمل فراغك، لم أكن الفلك الذي ينجيك من الطوفان بل غريقا مثلك... كلانا لم يعصمنا التعلّق بجبل الوعود، غير أنّي اخترت الموت كي تنجيك جثّتي الطّافية على السّطح ويقذفك الموج معها إلى الشطّ...

فلا تنسَ.. إكرام الحب دفنه.

معك حق: أحببت خرابا ... تصوّر كيف سنكون لو عرفتك في أوجّ قوتك، وجدتك كمدينة حلّ بها خسفٌ أو أصابها إعصارٌ فيه نار، فشمّرت على ساعدي أغرس فيك الحياة وأسقيها محبّة وأستصلح ترابك كي تعود جنّة تُزهر يقينا وأملا مع الرّبيع

جاء الرّبيع فذبلتُ أنا ... كوردة تكفّل بها الظّمأ.

لم تكن تخيفني فكرة قطعي ووضعي في مزهريّة لأيّام فقط ثم أذبل وأنا أقوم بواجب نشر العبير في غرفتك وتزيينها، شعور نقلي إلى ركن ما في البيت هو السّعادة الكبرى ولو يبس ساقي وتخلّت عنّي بِتلاتي

... لكن كنت أرتعب من أن تنسى سقايتي فأموت كلّ يوم بشكل جديد

أذبل وأنت لم تعرف أبدا جمالي وماذا يمكنني أن أغيّر في الجوّ من حولك، ثم يجفّ الكون في عيني وأنا لا أبرح مكاني

أقاوم وأتفتّح قبل أن تغادرني من جديد، لعلّي أواسيك في يومك الشّاقّ الذي لا تحكي لي تفاصيله وأفهمه من نظراتك الشّاردة عنّي، فتتركني لليلٍ جديد بارد وقاسٍ، وفي الصّباح أمثّل على أقراني أنّ القطرات على وجهي تسمّى ندى وليست دموعا

وردتك ترتعش من الحمّى، وهذه المرّة : ثمانية وثلاثون فاصل ستّ درجات...

الأرقام على المحرار لا تقرع طبول المرض إلّا ليلا والعقارب في السّاعة أصبحت سامّة وتطيل بزوغ ذلك الفجر الذي لم يعد يرمز لبداية مختلفة، يرنّ هاتفي البعيد فأفكّر في مشقّة الوصول إليه أكثر من فضول معرفة المتّصل ... أعرف أنّها أمّي

أتخيّل أنّي قمت إليه ووجدته رقما مجهولاً.

أسدَلَ عصرُ اتّصال الأحبّة ستائره وحان دور الغرباء، كلّهم أرقام مجهولة ونحن لطيشنا نعطيهم اسما ومساحة تخزين.

أمّي ... خلتك تعرفين أن الحمّى تقلّب المواجع وليست هي الوجع في حدّ ذاته، تلك التخيّلات وأنا أتصبّب عرقا تؤذيني وتبكيني أكثر من النّوبة العابرة، تلك اللّحظة التي أفتح عيوني وأجد نفسي في مكاني وأفهم أن كلّ ذلك لم يحدث : هي اللّحظة الأكثر وجعا، ذلك الصّراع بين ما أريد وبين ما أنا عليه هو الأكثر دمويّة

هكذا صرت: أعيش بالخيال وأموت على يده، كان لي غذاء وأصبح سُمّا وفي هذه اللّيلة أمسى دواءً وترياقا، لكن إلى متى ؟ تلك الأسماء التي ذكرتُها وأنفاسي بحرارة الجمر يؤذيني غيابُها .

لو كلّمتكِ لقلت:

ماما سمرة ... تعالي نبتعد عن الجميع بما فيهم زوجك الخائن، تعالي نتغيّر، نعود إلينا كما كنّا: لا نبالي بمن لا يبالي ، نستبدل الأشخاص بكتب كثيرة ونرقص طربا عند إطعام أحدهم، ألم نكن نترفّع عمّا يؤذينا، ونتجاوز كل حاجز مثل لعبة ماريو وأنا صغيرة.

ليتك تسمعينني لمرّة واحدة فقط، أفهمك لدرجة الخجل من استعمال ضمير المخاطب معك فأنا الجزء الواضح منك ولا يسعني إلا تمثيل ذاتك ونفسك بجسد أخر، أيعقل أن يكون حبّك لنفسك حبّا من طرف واحد! هي تسعى لإرضائك وأنتِ لا تهتمّين لها... لن أردّ على اتّصالك لأنّك لن تأتي إليّ، ولا أريد فتق جرح جديد بسوء فهمك.

أمّي سمرة

عملك في البلديّة منذ سنوات وقبل ذلك عملك عند طبيبة الأسنان التي حطّمت أسنانها عندما كان فارس رضيعا، والعشريّة السوداء: كل تلك التوليفة جعلت منك ما أنت عليه اليوم من قسوة .

أجبرتِني على الحجاب قبل البلوغ، منعتِ عنّي الاحتفال بأعياد ميلادي رغم أنّي لا أسكن عندك، منعتِ الأغاني عن مسمعي... لكنّكِ وقفتِ عاجزة أمام تسلل رائحة المشروب لأنفي في اللّيالي التي يعود فيها أبي يترنح إلى البيت.

كان واضحا أن الإفراط في الدّين والتّفريط فيه لا تغلق عليهما غرفة واحدة، ولا يجتمعان على الوسادة نفسها

لستُ ثمرة حب ... أنا ثمرةُ صراع

ولا يرغب أيّ منكما في استعادة مسرح أحداث هزيمته أمام الآخر، إلّا جدّتي التي فتحت حضنها قبل بيتها.

قساوة الحياة جعلت أبي يشرب

قساوة الحياة جعلت أمّي تتعصّب

كلاهما يبرّئ نفسه ممّا صار عليه، ولا أحد يجنح للوسطيّة من أجل أماسي وفارس

سبعة وثلاثون فاصل تسعة.

جفّ حلقي، وأعجز على النّهوض للمطبخ من أجل كأس ماء أتخيّل زجاجه ضبابيّا من شدّة برودة ما فيه، أستلقي على ظهري فتعود بي الذّاكرة لإحدى ليالي الأرق، في تلك الليلة أرسلتُ إليكَ بعيون محمرّة منتفخة :

" أنا بحاجة إليك منيب"

قضيت اللّيل على أعتاب النّقطة الخضراء أنتظر ردّك، وانتظرت معي معاني الكلمات التي كنت سأقولها، وكذلك البوح الخجول والكتب المرتّبة على الرّفّ، والمرآة التي تعكس حجرتي والإنارة فيها، وبعض الهدايا المغلّفة من الطّلبة التي لم أفتحها، وأنتظر الانتظار معي، فجلس بجانبي وتعرّفنا وتسامرنا وتناقشنا مطوّلا... ثم تراهن مع النّعاس عليّ، لا أذكر من منهما فاز، لكنّي على يقين بحاجتي إليك حتّى هذا اليوم..

تلك اللّيلة ... تشبه هذه اللّيلة

والفرق الوحيد هو: سبعة وثلاثون .... درجة؟ بل هو عمرك أيضا

وعمري أنا يتوسّد الموت حرقا من الدّاخل، لكنّي لم أمت، كراء القبور للسّكينة ليس بتلك السّهولة.

نوعٌ من الضّجر تملّكني عندما انخفضت حرارتي، هل خسرت فرصة الموت أم ربحتني الحياة كفرصة تعلّق عليها شقاءها من جديد ؟

متى يموت الإنسان يا منيب ؟

عند فراق من يحبّ؟ أم عندما تغادره روحه! عندما تتبلور في داخله شعلة من نور ثمّ تنطفئ بلا أمل؟ أم عندما لا يعرف الغاية من وجوده منذ البداية ؟

ربما عندما يستنزف طاقته على الأشخاص الخطإ، فتجده يتنفّس مفاهيمَ موروثة، ثمّ يخلق التّشابه في أيّامه والحسرة في لياليه عامدا، قد يتزوّج الموتى ويتكاثرون، قد يحقّقون إنجازات جميلة، قد يملكون هِواياتٍ لطيفة، وصحّة جيّدة، غير أنّ الحياة فارقتهم منذ حادث الثّقة في إحدى منعرجات الصّدق، أو انزلاق عن الدّرب بسبب التسرّع في الرّؤية الضبابيّة، أو تجاوز خطير للغياب الذي

حجب عنه الرّؤية، وهناك في عمق حديثهم مع ذواتهم تجد كلمات العزاء، وعبارات المواساة على الفقد الأبدي ، وشموع الصّبر عند ضريح السّلام بين الأشخاص الّذين لم يرحلوا بسلام.

يختار النّاس الموت... كانتحار روحي بجسد يمشي فوق التّراب

ببساطة لأن الاستسلام أسهل من المقاومة، أن تقودك الحياة حيثما أرادت أسهل بكثير من أن تقودها حيث تريد، ليس باستطاعة الجميع أن يواصل في عطائه فهذا الأخير مصدر دخل تتغذّى عليه المشاكل... ليس بإمكان الكلّ أن يتجاوز، دفن الحقد في الفؤاد أيسر من مدّ يد العون بعد الأذيّة.

منيب...

أنا مجبرةٌ على الحياة فقد خسرتُ فرصة الموت، نجوت بعد كل حوادث الثّقة القاتلة، بعد كلّ إسعافاتك التي تواسيني بها ولا تزيل أثر الارتطام.

أليست المخاطرة في السعي إليك بأهداف جديدة، أنقى من التعفّن بين النّدم والخوف الذي يحول دون شرف المحاولة؟

كثيرة هي الكدمات التي أراها على وجهي ولا تعكسها المرآة، ولا تظهر في الصّور خاصّة مع ابتسامتي، هذا الاحمرار والاسوداد المتداخل ليس في بشرتي، فقبضة الزّمن لا تترك مخلّفاتها وألمها في الجسد، ولا أتنبّأ بموضع اللّطمة ووقتها، حسبها تُحذّر وتحاذر كي لا تتهشّم روحي من جديد، هي ليست محاولة لاغتيالي ولكنّها ثمن البقاء، وثمن الصلابة والانتقاء والاصطفاء.

هل تذكر يوم قلت لي إنّ النّظام الكوني قائم على الاصطفاء!

قلت إنّ هناك اصطفاءً في الزّمن كشهر رمضان المعظّم وهناك مفاضلة في المكان كالبقاع المقدّسة، واصطفاء في البشر فنجد الأنبياء وعباد الله الصّالحين...

لعلّ الأمر أوسع من ذلك يا منيب....

نحن البشر جزء من هذا النظام الكوني، ولنا سلطة الانتقاء أيضا، لنا حقّ الخيار وحقّ القرار فإذا كان رمضان هو شهر الله الذي ميّزه عن بقيّة الأشهر فلك أن تميّز هذه الأيّام المعدودات أو تجعله يمرّ كغيره ، وإن كان الأقصى أولى القبلتين فلك حريّة كاملة في تبنّي حربه أو الجنوح نحو االاستسلام، أمّا بالنّسبة للأنبياء فمن شاء فليؤمن بهم ومن شاء فليكفر...

وأنا اخترتك فاستمع لوحي نياطي:

لم تكن قدرا بل كنتَ خياري عندما تعدّدت الخيارات، لم أقع في شباكك... بل مشيت إليها بخطوات واثقة ثابتة التّناغم، أعرف تماما ما أريد قبل لقائنا الأوّل، قبل قداسة المصادفة... رسمت صفاتك في عالمي وبقيت أنتظر اليوم الموعود الذي ألقاك فيه، ولمّا شاء الله تعالى أن يجمعنا، صاح كياني: هذا هو... لقد وجدته... وتحقّقت فرضيّة وجود رجل مثالي في واقعي الذي يسم التنبؤات بالكذب والدّجل.

اخترتُ الحياة بك ولا أمانع الموت على يدك، رغم كلّ الأشياء الحادّة من حولنا.

الفجرُ الصادقُ

(2)

" الله أكبر الله أكبر"

" لا إله إلا الله "

أكمل المؤذّن أذان الفجر...

أذكر معه التّكبيرات فأتذكّر الحلم وأستذكر تفاصيله لأحفظه وأذاكره مع نفسي، ثمّ أنظر للسّاعة الّتي تشير إلى وقت تحقيق الأمنيّات.

من الجميل أنّنا مازلنا نستقطب الأحلام الجميلة رغم الوسائد المبلّلة بالدّموع، ورغم ما تجعلنا الأيّام نكابده من مشقّة الغياب وضياع القرار وانتظار يخلق التعفّن حتّى في الأشياء التي ليس لها نهاية صلاحية.

وهاهي الكوابيس تعتزل اللّيل وهي تغطّي وجهها وتترك خصرها يتمايل على أنغام الفقد فتمتزج مسحةُ الطّمأنينة بتوبة ستائر المشاهد التي تراودني وأنا على خشبة مسرح الماضي.

لا أنكر أنّ بعض الأحلام تحشر أنفها بين الدّقائق الأولى لنهاية الأرق لتعيد مجده وسطوته على الجوانح والجوارح، ولا أنكر أنّي أواصل محاولة إكمالها بحديثٍ بيني وبين نفسي الّتي لم تعد تسمعني، غير أنّ الاختلاف هذه المرّة يكمن في النّعاس الذي رفع راية الاستسلام ولوَّن بِبياضها بقيّة اللّيلة الصّيفيّة الخانقة.

أسترجع كلّ ما مرّ بي في الحلم ولا أجد من أكلّم، غير هذه السّكينة المتّخمة بالسّواد بعد الفجر الصّادق:

أيّتها اللّحظات التي تقبع بين غفوة ويقظة ... بين سِنة ونوم..

أيّتها الذّكرى التي تفوح برائحة الغياب، وتحافظ عليه كزجاجة عطر ثمين..

أيّتها الحروف المتفرّقة على لوحة المفاتيح والمجتمعة في رسالة لا تنصف الشّعور:

إنّ الخوف من الفقد... فقدٌ أكبرُ

ترقّبُ الأحزان... حزنٌ أعظمُ

انتظارُ حدوث الأسوإ... أسوأُ من حدوثه

أيّتها السّحب الصيفيّة التي تتجاهل الجوّ الخانق بدل فهم تلميحاته

أيّتها الأنصاف التي تتوسّل حبّا من أجزاء لا تكمِّلها

إنّ نصفي غادرني ثم عاب نقصي، وجرحي بعده لا يشفى إلّا بالكيّ، وكسري لا يجبر إلا بالسّير عليه، ودمعي لا يُمسح إلّا إن ولّيت وجهي شطر المسجد الحرام أطلب معجزة من المجيب.

ها أنا أسحب جسمي المملوء نعاسا إلى الحمّام، أصوبن يديَّ قبل الوضوء، وعيناي تتأمّل هالاتي السّوداء في المرآة المقابلة لي فوق الحنفيّة، أغسل وجهي مرارا ولا يذهب الشّحوب عنّي، ومع كل قطرة على وجهي أستشعر كيف يبرئ الأرق نفسه ممّا أنا عليه وكيف يتّهمني بالبهتان والافتراء عليه.

هذا السّكون في الفجر لا يكسره سوى صوت المياه المتدفّقة من الصّنبور وصوت الأذان الثّاني، ونبرة "منيب" الّتي تتردّد على مسمعي منذ آخر مكالمة : " أماسي، لا ترحلي..."

أكملُ الوضوء ... وأعود للغرفة وقد تركت كل المصابيح مشتعلة، فأنا أخاف في غياب جدّتي من الذّكريات التي تتأجّج مع انعدام

النّور، أخاف أن يظهر لي شبح الفقد العجوز من العتمة ولا حضن أهرب إليه.

أصبح البيت فارغا رغم تواجد الأثاث، فلا تلفاز سيؤنس كجدتي، ولا فوضى ستُرتَّب في غرفة فارس، ورهاب السّكون يصيب كل الأركان.

" أماسي، لا ترحلي ... "

يتكرّر الصّوت فألتفت ولا أجد طيفك منيب ...

أنظر لمرآة الخزانة التي تعكس صورتي بطاقم الصّلاة ولا تعكس الصّلاة في داخلي وأتساءل:

أين حسن؟

أين جدّتي؟

أين فارس؟

وأين أنا الآن؟

ثمّ أصلّي ...

كم كانت متعِبة عودتي لهاتفي في الفترة الأخيرة لأتفقّدك إن كنت متّصلا بعد الصّلاة وأقرأ المحادثة الأخيرة والّتي كانت قبل أسابيع وقد قلتَ فيها :

" أماسي، سأغيب... أراك بخير"

لم أعرف يومها أنّ عودتك نوع من أنواع الاختفاء، أو ربّما عدم تواجدك هو الأصل وحضورك هو الاستثناء ... لم أعرف أن الغياب سببٌ للحبّ وذريعة لنهايته، وأنّي خُلقتُ من الانتظار بدل الحمإ المسنون.

لعلّ عبارة " أراكِ بخير" تعني لا تنتظريني، وتترجم إلى " قد لا أراك"

لعلّ النّفس حين تأمرها بالابتعاد تأبى إلا إلقاء نظرة عن كثب، وإذا حاولت الابتعاد ستلتهبُ شوقا، وتُعدم كلّ محاولة نسيان شنقا حتّى التّلاشي..

آه كم أعدتُ قراءة آخر منشور... آخر منشور لك في صفحتك على الفيس بوك، فأشعر أنّي أسكنت قلبي في وادٍ غير ذي زرع

وفي كلّ مرّة أعود إليه ... كأنّي أقرؤه أوّل مرة، لعلّ جراحي تتوسّل بحروفك وتستقسم بها، ثم تستأذن للنّزيف على ضريح المسافات،

وربّما كلماتك هي معلّقات قوانين الأحزان خاصّتي التي تجعل مشاعري فوضى منظّمة، وانتظاري خطيئة مع سبق الإصرار.

تضيق بي الدنيا بين شساعة تلك العبارات حتّى إنّي أضيع في متاهاتها... ألتفت من حولي فأجدني أمام المخرج لكن رغم هذا أعود للتّيه والضّياع دائما، كأنّي أستمتع بمداعبة جمري بشراراتك العابثة.

أسمعك من جديد : " أماسي، لا ترحلي... "

ترى كم حمّلتُ صورة حسابك على هاتفي وكم مسحتها؟ بل أُحمّلها من جديد ولا أمسحها.

حتّى مرّت ساعة... هل سأتجرّد منك وأعود إليّ؟

لكم كنتَ تلبسني وأفتخر أنّي معطفك غالي الثّمن وعلى مقاسك، أقيك من برودة معاملة النّاس وصقيع ليالي الفقد، ونسيت أنّك ستخلعني عند طغيان حرارة الشّوق.

قبل أيام قليلة قمتُ بحظرك

أتذكّر يومها كيف مرّت ساعة ودقيقة على الرّصاصة الأولى... على محاولة الاستقلال عنك ومنك؛ فأوّل جولة كانت بيني وبيني، وثاني جولة بين ورطة خيار اللّحاق بصفّك أم الالتحاق بما تبقّى من صفوفي؟ هل سأخون نفسي وأحاربني من أجلك؟ هل سأكون ضدّي لأدعمك؟ هل سأطالبك بهويّتي وأنا أحمل جنسيّتك؟

" أماسي، لا ترحلي..."

يومها بقي يتكرّر الصوت بعد ساعة ونصف على نزعتي الثّوريّة، على قرار مواجهة فقدك دون الاحتماء خلف التّسويف والأعذار، سأستعيد منك عاصمتي التي سلّمتُكَ مفاتيحها، وأسحب منك معاهدة الاستسلام ... وأعود بالزمن لأول مرة اِلتقينا وأشاهد إعلانا بدل قبول طلب صداقتك، وأغتال الذّكريات حتّى لو داهمتني على غفلة تتوسّلني جاثية باكية.

منيب...

الصّبح بعدك ليس بذلك البريق المستنير، وصوت قارئك المفضّل الذي ترسله لي كلّ صباح لم يعد يرمّم شتاتي بقدر ما يأخذني لفاصل قصير بين قوسين يجمعهما الفراغ ... انتهى موسم الزّهور في حديقتي الجميلة ... واللّعب على البحر لا يحسّن المزاج، واكتشفت

أنّي أحبّ الأطفال من أجلك فقط، وأمسى يصعب عليّ إكمال المقالات الطويلة وحتّى إنهاء مشاهدة الفلم لنهايته، فقدت شغف المواصلة والتّواصل، حتّى التأخّر في الردّ لم يعد مقصودا، وبكلمة واحدة هناك دائما لحظة الذّروة التي لن يعود كل شيء بعدها كما كان.

لحظة يتردّد فيها صوتك على مسمعي:

" أماسي، لا ترحلي..."

أسمعها دائما لدرجة أضع يديَّ على أذنَيَّ وأحتضن رأسي بقوّة.

لا يمكنني إعلان حريّتي وسيادتي على نفسي بهذا الحظر والابتعاد، كلّ ما سأقوم به هو انتشال شظايا الحكم الذّاتي من أوردتي بحذر، خوفا من نزيف جديد، من ندبة قد تعبث بذاكرتي، أخاف من إراقة أحاسيسَ جديدة قد تجعل منّي شخصا قد استُهلك حتّى هلك، وتؤثّر على حياتي مستقبلا.

لمَ قد أبقى يا منيب؟

عندما وصلت رحلتي معك لجسر المنتصف، عمّرتُ عليه القصور، وغرستُ الزّهور، وربطتُ مفاتيح حصني على خصري، ورقصتُ على عتبة الشّوق... وفي كلّ صباح معطّر بتخيّلاتي أمنّي قلبي بلقاء قريب.

نسيتُ أنّه المنتصف والبوصلة هنا تعمل في الاتّجاهين ... فالعودة إلى الماضي وأنا أضمر المفارقة لا تقلّ ألمًا على المواصلة لهدف قد لا يكون في الأصل موجودا.

غير أنّه لا يمكنني قول كلمة "من بعدك " لأنّكَ لستَ مرحلة، ولا يسعني أن أكتب كلمة "في غيابك" لأنّك لم تكن معي دوما، ولا أقدر أن أعبّر بكلمة "بعد رحيلك" فكيف لمن لم يأتي أن يرحل!

ومرّت أربعة أيام وثماني ساعات على قرار غلق سمّاعة الهاتف في وجهك دون محاولة لفتح حدودي العاطفية، أغلقتُ السّمّاعة بوقاحة وأنت تتوسّل بقاء ما بقي منّي أو ما أبقيتَه لي من خراب لن يتمّ ترميم، انتهى وقت الفرص ولا مجال لطاولة مستديرة، أكافح وجودك داخلي لأنّك لم تكافح من أجلي، فالمتاحة دائما والتي تغفر دائما لا تعود ولو بقي يتكرّر في ذهنها دوما:

" أماسي، لا ترحلي..."

لن ينتهي هذا الضّجيج في داخلي حتّى أُعدّ قهوتي الصّباحيّة على ذوقك وأنا أتصفّح بريدي الذي لم يعد لك مكان فيه ولا حصّة من زمنه، تصلني رسالة أبي في الإيميل:

" لن أقبل أن تعيشي بمفردك ... جهّزي وثائق السفر، ستعيشين معي".

رسالة أخرى: "أعلم تعلّقك بالبيت وبالذّكريات فيه، تعالي إليّ وستتجاوزين أحزانك، أعدك".

عجبًا ...

كيف يلقي أبي وعدا بتجاوز الأسى وهو أوّل من وضع حجر أساسه، وكيف يستعين بتغيير المكان على نسيان ما نسج مع كياني وما شربته من بيئتي، وكيف يراهن أنّي معه لن أكون وحيدة؟

سأعود للطّفلة الّتي في داخلي، محمّلة بفقد أخي وندوب الوحشة، أعود لها كمنقاد للمنفى: يجامله الفرح بدون كلمات ويبايعه الحنين دون راحة يد، فيُرقّع تمزُّق الرّوح بخيوط كبّة لا لون لها، ثم يخيط لي ضجيجا ضيّق المقاس، يبرز عيوب صمتي والآهات الزّائدة التي اكتسبتها مؤخّرا.

أنثَى لا يعتِقُها الغياب..

(3)

فارس..

توأمي بفارق سنوات، أكبُرُه عمرا ويفوقني نضجا، منذ انفصال والدينا أقمنا عند جدّتي ثم أصبح رجل البيت، كانت جدّتي خديجة تتكفّل بمصاريف تمدرسنا، وقوّتنا... ملبسنا... لعبنا... علاجنا ...

لم أفهم من أين لها كلّ ذلك وهي دون عمل، ولا تأخذ من والدي نفقة لأنّ أمّي من طلبت الطّلاق، وعملها – أمّي سمرة – لا نأخذ منه غير عيديّة رمزيّة مستعجلة الانتهاء نبذّرها في الحلوى والألعاب.

كنّا صغيرين عندما حللنا ببيتها، وبقينا نكبر من عطائها وكرمها ... كبر فارس لدرجة بحثه عن عمل في العطلة الصيفيّة كي يساعدها في الإنفاق، وكبرتُ لدرجة فهم أن جدّتي أمٌّ لشهيد ولها منحة لأنها كذلك.

كانت – جدّتي- تفتعل التّشابه في ملامح فارس مع ابنها الشهيد، وتقول:

" الذّكور يشبهون أخوالهم "

وبرحيل فارس شعرتْ أنّها خسرت ابنها مرّتين، فكلاهما خرج ليلا ولم يعد، كلاهما فهم الحريّة بطريقته، كلاهما أراد حياة أفضل ومستقبلا مشرقا، كلاهما متحمّس ومؤمن بالتّغيير، كلاهما رحل دون تجهيز حقيبة الثّياب أو حتّى أخذ أوراقه الشّخصية... غير أنّ الفرق الوحيد بينهما يكمن في أنّ الغائب الأوّل "شهيد" يثق في مستقبل الوطن، والمُغيَّب الثّاني " مهاجر غير شرعي" قانط من البقاء على ترابه.

يومها بقيت مصدومة أستلهم القوّة من الجدّة الأمّ التي صنعتها الفواجع والمواجع، أتأمّلها كشجرة جبّارة، تغرس عروقها في الأرض وتمتصّ ما بقي لها من حياة في غياب ابنها الوحيد، وتمدّ أغصانها إلى السّماء داعية بعودة فارسنا المهاجر، وبقي جذعها سندا لي ولأمّي سمرة ولكلّ ظهر لا يجد من يستند عليه، وثمرها لكلّ محتاج.

غير أنّ الشّتاء الماضي كان قاسيا عليها، بعد ذبولها في الخريف الثّاني لرحيله، فتحوّلت لحطب يابس رغم امتدادها في الأرض وعناقها المتكرّر للسماء.

أخي...

أعلم أنّك وصلت لحدود الصّبر والتحمّل، لكنّي أجهل إن كنتَ وصلت للحدود في وجهتك المجهولة، غادَرَنا الفرح منذ الصّباح الأول من دونك

أليس اضمحلال الفرح نوعا من الأحزان؟

أليس أفول النّور يعني الظّلام؟

كيف تظلمنا في رحلة بحثك عن العدالة؟

كيف نعاقَب بهجرك ونحن من كنّا معك عندما هجرك عالمك؟

هل حقّا فارس صاحب الثمانية والعشرين سنة لا يرى على هذه الأرض ما يستحقّ الحياة؟ الذي عمل صغيرا لأنّه رجل مسؤول، يتهور كبيرا في زورق الموت!

لماذا؟

لأنّ الحبّ خذلك؟ هل تعتبر نفسك الضحيّة الوحيدة لخذلان الحب؟

ما نحن إلّا رقم جديد في قائمته يا أخي، وليته يكتفي بنا قربانا، بل سيزور غيرنا كإعصار متسارع يتوسّع.

أم لأنّ الوطن أضاعك ستعيش الضّياع في وطن غيره؟ إن شعرت أحيانا بالغربة في وطن تحمل جنسيته فثق أنّك لن تشعر بإنسانيّتك عند الغريب وأنت بغير جنسيّته.

تغيّرت منذ فسختَ خطبتك، منذ رأيتها بعينك تمسك بيد رجل آخر وتعبر الشّارع الذي لن يقودها إليك بعد الآن، من يومها صارت الفراغات بين أصابعك مؤلمة، وتسلّل الفراغ لعقارب ساعة يدك، فتماثلت الدّقائق وتطابقت التّفاصيل وتشابهت الأيّام.

"دنيا"

لم تكن امرأة فائقة الجمال ولا شخصيّة نادرة ولم ألتمس فيها الالتزام الدّيني، لقد أحببتَها يا فارس دون أسباب، أحببتها كما هي أو لأنّها هي، فكانت كلّ دُنياك ونصف دِينك ودَيْن من السّعادة تدفع ثمنه بفوائد الألم المكلّفة.

صرتَ تقارن نفسك بغيرك، تحتقر ذاتك وتستصغرها يوما بعد يوم... تشكّل في ذهنك تقسيماتٍ للبشر ثمّ تضع نفسك أدناها، ولا أدري كيف سيطرت عليك فكرة تجديد الحياة خلف البحار!

استعانت بك للبحث عن أهلها لأنّها مجهولة النّسب، عُثر عليها أمام باب المسجد، فكلّفتَ نفسك عناء البحث معها وأصبح إخراجها من الحيّ القصديريّ الذي نبتت فيه قضيّتك.

في أوّل يوم عرّفتني بها زميلةً لك في كليّة التّجارة التي تدرسان فيها، رأيت أمواجا مخيفة في عيونك، حسبتها زَبد بداية الشّعور لا أمواج النّهاية بالاغتراب.

يومها كانت بألوان صارخة بقلّة الحياء، لا تناسب الحرم الجامعي، وظهر لي كم تولي عناية فائقة لأظافرها على حساب ما تقدّمه لك أناملها ولو رسالة بالنّقر على لوحة المفاتيح.

أحمر شفاه بارز ولامع، وحقيبة صغيرة تتأبّطها، مع سروال جينز ضيّق وخمار على رأسها يصف ويشف، والتّظاهر بالعجلة للمغادرة من أمامي ... هذا كلّ ما أذكره عنها، كم مضى على ذاك اليوم؟ .... ثلاث سنوات؟

هل يروقك هذا النّوع يا أخي؟

حينها فهمت خلافك مع أبي دون مشاكل معه، أنتما متطابقان حدّ التّنافر، ولا يمكن لأحد أن يقترب من الآخر رغم محاولاتي معكما عند رجوع أبي من ألمانيا.

فارسي، وفروسيّتي وفِراستي... لقد حال بيننا الموج ولا أدري أحيٌّ أنت أم من المغرقين!

يشتاقك شريكك في محلّ صيانة الهواتف الذكيّة، ويذكّرني حسابك بيوم ميلادك وكأنّي نسيته، وتداعبني ذكرى تنمّرك على قصر قامتي أمام طولك وأنا الأكبر منك بسنوات.

تشتاقك طفولتي وأعياد ميلادي..

هل تذكر عيون توفيق الواسعة ونحن أطفال؟

كان له قرون استشعار وأجنحة، لم أكن أراه مجرّد نحلة محشيّة بالقطن بل أحببتُه علانية لدرجة أنّك تنتقم منّي بضربه، فهمت من التلفاز أنّ "التوفيق" رجل يمنع الإرهاب في فترة العشريّة السّوداء فهو طيّب القلب، سألتُ أمّي عن دلالة الاسم فقالت: إنّه الفوز والنّجاح، في الدّراسة، لهذا سمّيتُ نحلتي عليه، فكان هذا الاسم متصالحا مع البراءة في بيتنا ولا يعكس أيّ حروب أهليّة.

ترى لماذا قصصتُ له أجنحته في حفل الطّهور التي أقمتُها له _ جدّتي خديجة إلى اليوم تضحك من حفلتي تلك_ بعدها بقيت لأيّام أنتظرها لتخيطها

ماتيلدي ... هل تذكرها؟

كانت الوحيدة في العالم التي تسمح لي بقصّ شعرها والعبث بوجهها ، لعلّ التّسمية من التّلفاز أيضا، لا أذكر ... لاحقا تمّ اختفاؤها في ظروف غامضة

اعترفتَ لنا أنّك قمتَ بدفنها في حديقة البيت تحت بساط النّايلون الذي تفرشه الجدّة ليُجفّف عليه الفلفل الأخضر لأنّي أخذت عجلات " الباجيرو" خاصّتك وجعلت منها ميكرفون كي أغنّي مثل "ماجدة الرّومي" ثمّ أضعتها لك

كم كنت تستمتع وأنا أتذمّر بشدِّ فستان جدّتي : " أين وضعتِ ماتيلدي! "

"ماجدة الرّومي" كانت قدوتي، أراها مثلما يرى الأطفال أميرات ديزني اليوم، قبل سفر بابا إلى ألمانيا طلبت منه عند عودته لعبة جديدة تشبهها، وأنت لمَ لم تكن تطلب منه شيئا أبدا؟

قال- أبي- إنّه سيفعل بشرط أن لا أبكي...

بكيتُ في غيابه، ثمّ بكيت مجدّدا لأنّي أخلفت الوعد .. ثمّ ندمت على بكائي الأخير فبكيت ندما من جديد.

ليت جدّتي انتبهت أنّي شخص يبالغ في الأحزان.

عرفتّ أني سأتّجه للأدب من بحثي عن معنى أسماء لعبي ومن تحدّثي بلغة متلفزة ، ثمّ كبرتُ وكبر حبّي لغير توفيق ... في البداية كان " منيب" غير محشي بالقطن وقلبه نابض وكنت أمتطي أجنحته، لكن مع الوقت أصبح دمية جديدة أحمّل نفسي مسؤولية سعادتها وأبحث عن ضياعها بشدّ فستان الزّمن، وغيابك أخي كان بمثابة قصّ الأجنحة.

وللغرابة جمعني بمنيب الفيس بوك ، هذا الأخير نفسه عاجز عن كبح رغبتي في التّواصل معك، فلم أتوقّف عن إرسال الرّسائل في حسابك يا أخي إلى اليوم.

تجاوزتُ مشاعر الطفولة لتوفيق و ماتيلدي، وبقيت بأجنحة ممزّقة لا تجيد ماما خديجة خياطتها، وفهمتُ أخيرا قول ماجدة الرّومي: "كلمات ليست كالكلمات" لا تعني بها أبدا الكلمات السهميّة في

جريدة الخبر التي يبيعها "عمّي الحوّاس"... فهمت معنى سواد اللّيالي الصيفيّة وكتب الشوق المنسيّة.

ليتك تردّ عليّ يا فارس... ليتك تفتح حسابك فقط وتشاهد الرّسائل حتّى لو لم ترد

تشتاقك طفولتي و أعياد ميلادي...

أعتقد أنّ قديما في شجرة عائلتنا جدّة مسيحيّة وجد متعصّب، ورثتُ عنها من والدي حبّ الاحتفال بأعياد الميلاد، وورثتَ من الجدّ المتعصّب أنّه بدعة.

أعتبره حدثا مقدّسا، وأشعر بوخز قلبي عندما يمتنع أهلي عن الاحتفال بالمولد النّبوي الشّريف، كبرتُ وكفرتُ بكلّ ما لا ينصف اعتقادي وأصبحتُ أحتفل بمولدي مع أبي وصديقاتي فقط.

فارس...

هل تذكر يوم قلت لي: لا بركة في أمّة كثرت أعيادها! أجبتك أنّنا أمة نعتبر الجمعة عيدا ونحفل فيه كلّ أسبوع، إذ نتطيّب ونذهب للصّلاة التي خصّ بها الله تعالى هذا، بل مع خطبة ودرس أيضا ونتبادل التّهاني وهو يوم عطلة عند سائر المسلمين نذرُ فيه البيع.

غضبتَ كثيرا وأنت تردّ: إنّ تبادل التّهاني في هذا اليوم بدعة لم يثبت وعيد الميلاد هو بدعة عبيدة في عهد الفاطميّين أيضا .

لا أدري كيف استيقظت الجدّة المسيحية في داخلي واسترسلت: هل تتصوّر أنّ الربّ سيغضب منّي لأنّي صنعت كعكة بمناسبة هذا اليوم كي أفرح مع أهلي؟ ألم يقل لمريم لا تحزني وكلي واشربي؟ ... ثمّ كيف لا يغضب من الذي قتل مسلما آخر باسم الدين؟ ليست لي أي أذيّة للغير في الاحتفال بقدر ما نبرّر جرائم لا تبرّر... فإن لم ترغب في الانضمام معنا اذهب إنّا هاهنا محتفلون.

لم أكن أعرف أنّه آخر عيد ميلاد لي معك، لماذا فجأة تحوّلتَ لنسخة من أمّي المتشدّدة وصرتُ نسخة من أبي، ودخلنا في نقاش بيزنطي بأفكار ورثها كلّ منّا من قِبل أحد أبويه.

لم يتّفق أبي وأمي على مفهوم واحد، فهل سنتّفق أنا وأنت يا فارسي إن تبنّى كلّ منّا ما غرس فيه منهما!

لعلّك بخروجك من حفلتي تمدّ بساطا أحمر ليسير خلافهما إلى المستقبل، ويجعل منّا نحن الأبناء أقداما حافية متشقّقة تمشي اتّجاهين متعاكسين فيكبر الشّرخ المتصدّع بينهما.

فارس...

مازلتُ أحمل هاتفك وصورك في كلّ مساء، حتّى إذا جنى اللّيل دخلتُ غرفتك وهي خاوية على عروشها، أقلّب ثيابك ذات اليمين وذات الشّمال وأعيدها للخزانة، ثمّ أفتّش في أغراضك عن ذكرى أخشى عليها من هيمنة النّسيان، وفي ليالي عديدة أنام مكانك تحت صورة فريقك البرشلوني الذي تناصره خاسرا وتفضّله رابحا.

وفي الصّباح أتّجه لعملي في الجامعة، فيتكرّر سؤال من أصادفه في الطّريق عنك:

هل من جديد؟ ... أين هو؟ ... ألم يتّصل بكم؟ ...

مضى على ذلك الحال بدل الأيام أشهر طويلة، وبدل الأشهر سنوات عجاف ... سنوات تتدهور فيها صحّة جدتي، وأدخل أنا بالرِّجل اليمين إلى متاهة "منيب" وبراثنه، وكأنّي أسدُّ احتياجي لفارس بفارس أحلام لا يجعلني أمتطي غير الحمم التي لا تفرّق بين الأخضر واليابس.

فارس ومنيب... كم يتشابهان.

لعلّ كلّ الرجال متناسخون... ولو اختلفت ثقافاتهم وجنسياتهم وتقاليدهم.

إنّهم كجوز الهند، صلابتهم في القشرة فقط، يعيشون أحزانهم بعيدا عن المواساة، بعكسنا نحن النساء نبدي ضعفنا كنوع من مخبثة قويّة، وهم محترفون في النّسيان لدرجة أنّهم ينسون كيف يتجاوزون ما يتعلّق بعواطفهم، وقد يدمّرون المستقبل في سبيل إسعاد جلالة الماضي وسموّه ... وبعد الخذلان يقدّسون أفكارهم بدل عواطفهم وعقولهم التي تنبض في الحبّ بدل قلوبهم، وفي ذات أنانيّة منهم لا يكترثون لمن تحبّهم وتعوّضهم بل يتمسّكون بذكرى المرأة التي يحبّون حتى لو كانت امرأة مثل "دنيا"، فهي الأنثى التي لا يعود بعدها أي شيء كما كان، أمّا علاقتهم بأوطانهم فيغلب عليها عدم الارتياح رغم الاستقرار.

كان ساحل وهران شاهدا على ابتعاد فارس، وكانت بغداد عاصمة الأحزان عند منيب، ولعلّ لكلّ رجل حكاية صامتة عاشها مع مدينته التي يعرف شوارعها وتعرف ممرّات العبور لفؤاده.

نحن النّساء أكثر تصالحا مع الأماكن، نحتفل بمغادرة بيوت الطّفولة ونحن بالأبيض في أسمى معانيه، بل أحيانا نغيّر المدينة

والبلد ونحن نلحق بالنّصيب الذي جعلنا نُحلّق في السّماء وهو يُلاحقنا على الأرض.

أحزان النّساء والرّجال وأحلامهم الممزّقة دون التّفريق بينهم: تجمعها مدينة وهران...

إنّها أكثر مدينة في البلاد تعيش عزلتك بكلّ اجتماعية وتنفرد وحيدا رغم ازدحام الشّوارع ورغم كلّ من حولك تعرف تماما أنّه يكفي شخص واحد لتتحوّل حقا لمدينة.

وهران مختلفة بالنّسبة لي ...

إنّها سيّدة فاتنة، في غاية الوقار، عمرها يقاس بالحضارات التي أزهرت فيها، والخطوط في وجهها تحاكي جمال الجبال والحدائق، قدرها أن تكون في أقصى المدن، فتُحسد مِن مثيلاتها لأنّها جوهرة البحر، فتُتّهم بالتطرف رغم أن الوسطيّة أجمل ما فيها.

الكثير من الأفئدة تأوي إليها عشقا واشتياقا لأنّها مدينة الموسيقى التي تلحّنها الدّموع، ومدينة الأضرحة وتعايش الأديان... فبين كلّ كنيسة ومسجد، تاريخٌ يتعبّد بخشوع، ومؤرّخ لا ينصف وصف عمرانها.

الغروب فيها جميل- رغم غياب الأحبّة الذي يحجب شمسنا - و ليلها مضاء بالأنوار فهي مدينة لا تعرف النّوم... تستلقي سيّدتي الباهية بين الرّمال والموانئ في ساعة متأخّرة وتتكلّم عن قوائم الاحتلال التي مرّت بها، ولو كان لها صوت لخرج من باب إسبانيا، لتناجي شبابا مثل فارس.

وهران ليست مدينة... إنّها أنثى لا يعتقها الغياب، كأمّ استشهد ابنها أو أخت هاجر سندها، أو كأماسي البعيدة عن منيبها... ومع هذا كان يرى فارس أن الاستقرار فيها يزيده ألما و يجعل الذّكرى القاسية تنمو وتتبرعم بعد وأدها.

لستُ حربَك..

(4)

الرّابع والعشرين من يوليو..

صار الليل قاتما، تركته في نصفه فتركني في نصف تفحّمي باحتراق لم يكتمل، فأكملته بالرّماد وأكملني بالأحلام والهذيان.

رحلت بي سِنة النّوم إلى هناك ... حيث لا مكان، لكنّنا التقينا..

جعلنا من مقهى اللّقاء الأوّل شاشات رقميّة نجلس أمامها ونقعد فيها مقاعد للسّمع، واستبدلنا فنجان القهوة برشفة الرّسائل ورجفة الهاتف عند الاستلام وارتعاده عند الاتّصال، وحولنا الشّوارع التي تلعب بحجر النّرد كي تعرف احتمال مصادفتنا إلى طرق ليس فيها أعمدة الإنارة ولا أضواء الإشارة الثّلاثة ... باستثناء اللّون الأخضر الذي يعني الحضور وليس المرور والعبور.

لقد جمعنا اللّون الأخضر كنقطة يسار الصّورة في تطبيق ماسنجر، ثم جمعنا للمرّة الثّانية في حبّ الطّبيعة وفي عشق التّخييم وتصوير المروج في الرّبيع، غير أنّه فرّقنا عندما عُلّق كرمز للسّيادة العربيّة، وبقي يرفرف بغير أجنحة في سماء تتوهّم الحريّة.

أنا أنتمي إلى الأخضر في العلم الجزائريّ ... فأيّ اليخضور تمتصّ منه الضّوء لتصنع منه عروبتك اليانعة يا منيب؟

أنت من أب فلسطيني، وأمّ لبنانية ومقيم حاليا في بغداد، أتُراك تكتب به لفظة الجلالة أم ترسم به شجرة الأرز؟ ... أم تلوّن به مساحة تلامس بها الأحمر في حاجبه وتقبّل الأبيض في جبينه.

قاطعنا الألوان لأنّها فرّقتنا في غلاف كتابنا المشترك، ورحنا نتفحّص المقدّمة ثم نكتب أوّل فصول حكايتنا ونحن نجهل الحبكة الّتي تنتظرنا، وكيف كتبنا النّهاية في المشهد الأوّل ولم ينصفنا الأسلوب ولم تغفر لنا الكلمات.

لقاؤنا الأوّل كان بين سلاسل الأسماء المعلّقة في طلبات الصّداقة التي لا تعرف الصّدق، التقينا المرة الثّانية في حدائق البصرة، رأيتك تحصد القصائد بقلم منجلي وتقطف ما أينع من المعاني، وأنا أغرّد كطيور الكوفة التي صوّرتها لي كيف تربّيها في الأقفاص، وأنتظر منك أن تجعلني عاصمة الحياة، التقينا المرة الثّالثة عندما بدأ تأريخ جديد لا يكتب على الهامش ... ولا يُدرس في المحاضرات التي ألقيها.

عرفت منه أنّه يتيم الأب، والفرد الكبير في العائلة؛ ممّا جعله يتحمّل مسؤوليات في غير سنه، ولد كبيرا ... لا يعرف من الطّفولة غير أنّه

كان بحجم صغير وملامح بريئة، أمّا الحياة فلم تفرّق بينه وبين الكبار، حرم من التّعليم لأكثر من ثلاث سنوات بسبب الوضع السّياسي ممّا شكّل له عقدة شغف المعرفة، فلا يمرّ يوم إلا وقد طبع عليه قبلة المطالعة قبل النوم.

ثمّ دخل الجامعة، لكنّه لم يعمل في مجال تخصّصه، ذكر أنّه - حاليّا- في شركة للأجهزة المنزليّة، ومع كلّ ذلك يستصعب عملي كمدرّسة لغة عربيّة في الجامعة.

يقول إنّ مسؤوليةّ توجيه فكر الإنسان أو لغته أكثر من مسؤولية تأمين اللّوازم الماديّة للعائلة ...

لقد لمست فيه أنّه ناقم على كلّ الجامعات التي لا تأتي بالجديد ... وصفها بالغسّالات التي يبيعها: تنظّف الثّياب لكنّها لا تخيط الممزّق ولا تصنع ثيابا جديدة بل وتعبث بالألوان أحيانا.

وسألني باستهزاء : هل تعلّمين الطلبة أسلوب التّلقين والاعتماد عليك كمصدر؟ أم تحفّزينهم على الاطّلاع بأنفسهم من المصدر؟

منيب!

تعتبرني جزءا من نظام الغسّالات أليس كذلك؟

أصبح لديك أعمال أخرى غير دوامك في الشّركة؛ فأنت تعمل على تقييمي دائما، كأنّك ترتوي من نهر إغاظتي وتسطّر ظنّك واقعا لا نقاش فيه، فتشعرني أنّي في موقف اتّهام وعليّ التّبرير:

أنا أُدَرّس اللّغة، ومن يُعلّم اللّغة فهو يُعلّم الفكر، ومن يُعلّم الفكر هو يُعلّم التّفكير، ومن يعلّم التّفكير لن يكون بالوعة لعقول فتيّة متعطّشة للاطّلاع.

وكما عرفتُ منه أنّه يتيم الأب والفرد الكبير في العائلة، عرفت من خلال أسلوبه أنه لا يجيد الحديث عن نفسه، ويستفزّ الآخرين ليُخرج منهم ما كانوا يكتمون، فيدع أثره ولا يتأثّر، ويترك كلّ ما حوله ليعبّر عنه دون أن يعبّر عن نفسه.

في البداية... أو التي أظنّها بداية، كنّا نركّز على النّقاط المشتركة؛ تجاوزنا عوائق اللّهجة باللّغة الفصحى، وتجاوزنا حواجز المسافة بالصّور والرّسائل الصّوتيّة.

كان أسمرَ، بعيون عسليّة مبطّنة وبخطوط حولها عندما يبتسم.

أُكبِّر الصّورة لأتأمّل تقاسيمه وتفاصيله، فلا أراها بشكل واضح

أنت هكذا، كلّما اقتربتُ منك أصبحت صورتك ضبابيّة وأعجز عن تفسيرك، وأنا اليوم زوجك؛ أي بدرجة من القرب تجعلني أتنفّس غموضك وأناجي أهدافاً غير واضحة وأخوض تجرِبة الطّريق المظلم الذي ليس فيه أيّ عمود إنارة.

هل حقّا تزوّجنا؟

هل لبستُ لك الأبيض وألبستني الخاتم؟

هل أقمنا عرسا؟

لولا عيون ابننا لما صدّقت كلّ ذلك، فقد أخذ منك لونها وأخذ منّي دموعها في عتمة اللّيل، والزّمن الذي ظلمك في صغرك ولم ينصفني في شبابي هو نفسه الذي جعل حسن يكبر ويحبو ويخطو أولى الخطوات، والموقع الرقمي الذي كنّا نلتقي فيه صار دهليزَ البيت الذي يتعلّم فيه صغيري نداءك قبل أن تغادر صباحا، واللّون الأخضر الذي جمعنا لغايةٍ في نفسه وفرّقنا لغايةٍ في نفس الأنظمة هو اليوم قميصٌ لحسن مكتوب عليه: "سعادةٌ ونصف "

طفلي؛ بل طفلاي

أصبحتما عالمي...

ابننا اليوم نبضة يقين في قلبٍ يشكّ حقيقة نياطه، كلّ ما قد أكتبه بعيد عمّا أشعر، فلا أدري هل أنا العاجزة الّتي تسرف في عطفها أم هي اللّغة الجامدة التي لا يتشابه فيها المعطوف مع المعطوف عليه رغم عاطفة الواو الجيّاشة التي تجمع شملهما كلّ مرّة!

سأقول إنّي أحبّ؛ بقدر تشتّت الكلمة بين أفواه الكاذبين، وتشرّدها بين قلوب المخذولين، وتعذيبها لأرواح الفاقدين، وتكرارها في كل حين، حتى أصبحت أسعار صرفها تقاس بالأسى وبعدم الاكتراث في بورصة المشاعر؛ سأقول إني لم ألد "حسن" بل وُلدت به من جديد فلم أعرف قبله أنّ كبدي ستتطوّر لتمشي على الأرض لم أعرف كم نحن قابلون للتّجزئة.

غير أنّي بقيت على شفا حفرة من النّار، تجعل من حواشي كبدي هشيما تذروه الرّياح.

قدرُ صغيري أن يخلق بين بقايا المفاهيم والفوضى، فيرى الصّورة كحقيقة أمّا الحقيقة فتهرب من نافذة العليّة وتركض في كل الاتّجاهات.

حسن ...

قد لا تعرف معنى انتظار مرور ساعي البريد، ولن تستشعر الحميميّة في رسائل الورق، وتكبر في زمن يأخذ الحِرَف سبايا على صوت أنين المهن وسكرات موت بعض الوظائف، فمن التقى أبواه أوّل يوم في موقع لا أستبعد أن يشتدّ عضده بين الأحضان الافتراضيّة والمشاعر المعلّبة التي لها نهاية صلاحيّة.

ثق أنّ العبث الذي ستؤول إليه الأمور لن يلامس مكانك في قلبي، أمّا والدك فسيحبّك ويتضاعف حبّه مع كلّ كتاب تتصفّحه، فستقرأ لتنتمي إليه شعوريّا لا اسميّا، ولتمشي معه على شاطئ بحر قصيدة منسوجة الأمواج على الأهزاج ، وتشاركه الفتوحات النقديّة وأنت تحمل سهام نظرته الثّاقبة للخلفيّات وقوس الاستشراف لما سيكون، فتصوّب معه وتصيب مثله.

لك أن تنبش ما جرى وما يجري لكن لا تنبش فيه، لتكن لديك تجارِب معه لكن لا تشدّ الرّحال إلى تجاربه، أخشى عليك أن لا تعرف كيف تخرج من مراسم المتاهة التي تتغيّر باستمرار، ستشعر بالأسف على الشّعور المحتشم الذي يقحمنا في حلقة مفرغة؛ قد تكتئب إن عرفت أنّي هامش في صفحات أيّامه.

أنا أحببته يا بنيّ، لكنّه يحتجزني كفصل من حكايته ... لا كلّ الحكاية، ستجدني في مشهد يحشر نفسه بين الوجود والعدم، أو بين الحضور والغياب، بين دمعة وابتسامة، أعاني تأنيب ضمير الظّالم وألم المظلوم في ذات وجع، وأبكي بعين الفاقد وبدهشة الفقيد في ذات انطفاء، وأتّخذ قرار الرّحيل في كلّ يوم أصمّم على البقاء معه، لأنّي أخشى عليه إنصافي بقدر، وأن يحلّ به النّدم بعد رحيلي.

لست متناقضة يا وحيدي، غير أنّي أكره أن يكون خاسرا، مهزوما... وأنا التي عاهدتُ ووعدتُ أن أنصره وأناصره وأنتصر له، لذلك أمقت عدالتي التي تجبرني على تطبيق قوانين الكرامة.

أنا صاحبة النّصيب لكن ليس لي من الحبّ نصيب، فبينما يتوهّم الجميع أنّه السّكن والمسكن، كان مستهلِكا، مستنزِفا، أجوفَ وباردا، يُشعرني أنّي في العراء تارة أو أنّ الثّلج يهطل من السّحب التي تعتلي قلوبنا تارة أخرى.

بنيّ...

أكاد أَسمعك تطالبني بالتحمّل وتطلب منّي الصّبر لأنّي أعرف تماما كيف يعيش الطّفل بعد انفصال والديه، لكن لا حاجة لمطلبك فكلّ متاعبي وعتبي يندثر بمجرّد الوقوف على أعتابه.

بقائي ليس خوفا عليك ولا خوفا من رأي أحد ما؛ لا يهمّني أن يسمني المجتمع بالمطلّقة، ولا أخشى من الفوارق الاجتماعيّة التي قد أكون في أدنى طبقاتها بعد الطّلاق، ولا بقائي حفاظا على بشائر الحياة في ملامحك وطلائعها، وأكذب إن قلت إنّي أكابد من أجلك أنت كي تكبر في عائلة متماسكة.

بقائي من أجل منيب وحده.

تأتيني السعادة جاثية كلّما ابتسم، وتغمرني فرحة الارتياح في طيّات كلامه، حتّى لو اعتبرني جزءاً من نظام الغسّالات، أجد بحوزته ربع السّعادة خاصّتي الذي كان ينقصني منذ صغري.

ربّما أنا كذلك يا منيب؛ جزء مهترئ من نظام متآكل...

أُدَرِّس اللّغة العربيّة ولا أعرف محلّي من الإعراب

أفِعلك أنا؟

تبصرُني وتنصتُ إليّ، وتتكلّم معي، وتأكل ممّا أعدّه ثمّ تذوق بلساني؛ تتوسّدني وترسمني، تلوّن حياتي وتكتب بأناملي، وتتخيّل بذهني، وتحلّل بمنطقي... غير أنّك تهوي، ترتطم، تنزف، تحترق، من أجلها؛ تتجرّد، تكتئب، تنعزل، تموت ثم تعود للحياة وتجنّ بها؛ فتبكي عليها وتصرخ وتكتم وتُكسِّر وتنكسر وتسهر وتحزن عليها، ثمّ تغيب... لأصبح مفعولا به وقع على رأسه الماضي الذي نصبه وناصبه العداء.

أنا خبر مرفوع...

خبر تعطّل منبّهه فجرا، فتأخّر عن بداية النّص، ولمّا أقبل وجد النّواسخ تحتلّ المشهد، وليحافظ على ضمّة الوصال التي ترفعه لم يترفّع وبقي صغيرا لأنّه لم يُكابر ورضي بترتيبه ذليلا وهو الأشرف نسبا بين الأسماء، كان عليه أن يهمّ بالرّحيل ساعتها ولا يقبل أن يكون خبرا لغير حبيبه المبتدأ ولو للحظة واحدة، كيف قبِل على نفسه أن تعزّزهم الجملة بثالث، ليته لوى عنق النّصِّ؛ ليتني خبر ثكل أم المعنى.

أنا مضاف إليك...

مجرورة بظهري العاري على الحصى، وبنصف قلب مكسور، والنّصف الثاني خبّأته لحسن، لكنّك خلعتَه مِن مكانه كحاكم عربي

جائر واستبدلته بحزبك، فكتبتني في ديباجة دستورك أنّي أوّل مضاف إليك نكرة سحبت منها "الـ" التعريف.

كنتَ اسم الإشارة الذي يُقرّب البعيد الذي لا يليق به إلّا ضمير الغائب، أو حال مكسور، يستبدل الشّرخ العظيم فيه بفتحة متفائلة على ثغره، أو أحد حروف الجرّ التي تأخذ الجزء المناسب لها وتترك الباقي للدّعاء والقدر...

في كل الحالات أنت الدّرس والمعلّم.

معلّمي...

غيّرتَ الكثير من مفاهيمي، وصالحتني مع أخرى، واكتشفتُ من خلالك ماهيّات جديدة، فكنتَ بوّابتي التي ألج فيها إلى نفسي ومدخلا لهواجسي، أتفقّدها من خلالك خوفا عليها من ضياع مخطَّط له أو غيابها بحكم قوانينك مع وقف التّنفيذ.

منيب...

لقد زال قلقي وعثرتُ على بطاقة هويّتي الضّائعة بين أوراق كنت أكتبك فيها رَجُلا متصالحا مع المعاني... يوم أخبرتُك أنّي أضعت هويّتي، قلت:

" اصنعي لنفسك أخرى"

" أماسي؛ ليس الوطن من يمنحك إيّاها في يوم ميلادك الأوّل، أنت من تصنعين هويّة للوطن بميلادك من جديد"

كيف أصنعني وأعلن ميلادا آخر؟ كيف أنقل هويّتي من إرث لا أتحكّم في نضجه إلى كيان يعترف القويّ بوجوده قبل الضّعيف ويحسب له ألف حساب؟ أيّ نجاح سيجعلني أولد من جديد وبهذه الصّلابة؟

هكذا أنت؛ ككلّ مرّة...

تثير التّساؤلات وتفتعل الاستفهام ثمّ تكبّلني بالغموض، وتضحك من تخبّطي لحلّ كلّ أحجية تلقي بها على عاتق جهلي المسالم.

عثرتُ على بطاقة هويّتي الضّائعة بين أوراق كنت أكتبك فيها رجُلا متصالحا مع كل المعاني؛ إلّا معنى الثّراء والنساء.

لطالما رأيتك غنيّا لدرجة أتهيّب المثول أمامك، أراك موسوعة سمراء طويلة القامة، بعيون عسليّة وشعر بنيّ، لديك أسهم من المعارف، وحساب ضخم في بنوك الأدبيّات المختلفة، ومصنع كتب منقّحة، وشركة أفكار للاستيراد والتّصدير، ومجمع متكامل من الاستشراف

في السّياسة والاقتصاد... لك قصرٌ رخاميٌّ من الثّقافة العامّة، وعقارات في تخصّصك وأخرى من عملك وتجاربك، والكثير من المجوهرات التي كتبتها في مختلف الصّحف وتزداد قيمتها بالأقدميّة.

لطالما رأيتك القويّ الأمين، تتصدّق بالعطاء رغم أنّ اهتمامك بي لم يبلغ النّصاب ومرّ عليه أكثر من حول، وأنا هناك في ركن ما من تفاصيل يومك، فقيرة رغم مطالعتي ومن المساكين والمؤلَّفة قلوبهم رغم تجاربي وعملي، بقيت من أصحاب المفردات المبتورة والتعريفات السّطحيّة.

هذا الثّراء بالنّسبة لي كأنثى، فكيف تقزّمني بالمشابهة مع نساء ماديّات تهمّهن الجيوب بدل أصحابها؟

غنيّة أنا بك كأحد دعائمي؛ فكيف تفكّر أنّي مثلها؟

أتخيّلها مثل "دنيا"، كانت تستغلّك - رغم بصيرتك لم ترَ ذلك- وعندما غدَرتْك وغادرَتك تركت ما يدلّ عليها، تركت مشروع رجل ناقم حاقد؛ لا يرى في عيوني إلّا طمعا وجشعا ماديّا، لا يبصر محاولاتي النّاعمة في تصحيح مخلّفات السّوابق العاطفيّة من شوائبَ عالقة تؤثّر في المستقبل، لا يهتمّ لتضحيّاتي في سبيل أن

يكتمل قاموسُ المعاني عنده بالمثاليّة المطلقة، لا يريد أن يقيس صدقي وربّما لا كيل لي عنده.

لابأس؛ لك أن تتّخذ من تجربتك معها ذريعة لعدم قبول كلّ القرابين.

لكم فضحتك نفسُك وأنت تعاكس سيل رغبتك، كم بدا الصدُّ من قصدك وما يخفي صدرُك أكبر، تقول ما لا تفعل، بل ويخونك التّعبير أحيانا فتتكفّل عيونك بسرد بقيّة حكاية المقارنة التي تذيعها في كلّ موقف دون صوت.

ما أنت إلّا بشر مثلنا؛ يُشهر بك الأسى فتأخذ عنك السّعادة نظرة خاطئة من بعيد، ويتوجّس الفرح منك خيفة.

لا يسأم العالم من النّسخ المكرّرة، لا يملّ الزّمن من إعادة نفسه بين الشّعوب وبين الأنظمة، بل حتّى بين الأسر والنّفوس، هذا التّشابه يجعلنا نتنبّأ، نستشرف، ويأخذ عنّا قرار إظهار التّشاؤم في نكتة، أو التّفاؤل ببحّة مخنوقة .

قلتَ لي مرّة إنّ تماثل الأسباب يؤدّي للنّتائج نفسها؛ لعلّ هذا بند في قوانين المشابهة والمقارنة بين النّساء وكنت أتغافل عنه بغفلة مغفّلة.

أمّي سمرة تقول إنّ شرط استمرار الزّواج هو التّغافل لكنّها لم تقل يوما إنّ ذلك يصنع من الحبّ، وتقول إنّ الحياة بين اثنين تقوم على التّفاهم لكنّها لم تقل: إنّ هذا الأخير هو الابن البكر للمودّة، لقد ورثنا قيما نجهل أنّ لها مصادر قيم أخرى أكبر وأعظم، بل هي أكثر تفرّعا وترفّعا.

الاستمرار ليس هدفا ...

لا يهمّ أن نصل للنّهاية معا بقدر ما يهمّ الوقت الذي نقضيه في الطّريق حتى لو قُدّر لنا أن ننفصل لسبب ما.

هل ستنفصل عنّي يوما ما يا منيب؟ ... وحسن؟

كنتَ الحمم الهادئة التي أستوي عليها، وانطفأتَ قبل نضجي؛ أنت العاصفة التي تأتي بعد الهدوء وتترك خلفها هدوءا جديدا لا يشبه الأوّل... كنتَ البركان الثّائر الذي عشقتُ حممه، وصنعتُ على فوهته أرجوحة حتى أرتفع عاليا مع كلّ انفجار، لتفاجئني أنكّ ستصبح كغيرك؛ جبلا خامدا يجعل من أرجوحتي مستحاثّة شهيّة للتنقيب

حبيبي ...

لو أنّ لي كرة، فشمسك طلعت من المغرب مبكّرا؛ وأنا في غفلة منّي، فلست مؤمنة بعدالة الحبّ وإنصافه، ومشركةٌ بكلّ ما أنزلته عليّ من رسائل الرّحيل ... أنا أعيش أهوالا لا تعرف منها غير عتاب لطيف أخجل أن يتكرّر.

لا يا منيب؛ لا تقل ذلك...

أعلم أنّي لست غنيّة بالكنوز كشارع المتنبّي في بغداد لكنّي كتاب ليس له نسخة أخرى ولا فيه الكثير من الصّفحات، وأعلم أنّي لست بعروبة وفصاحة اليمن لكنّي موسومة مثله بالسّعادة؛ أبتسم في عزّ قهري.. رغم مجاعة براءتي وانقسام شعوري بين الانتصار بك وشرعيّة الهزيمة، أنا فقط بيروتيّة الاجتياح ولا طاقة لي في مواجهة فكرة أنّي لستُ قضيّتك...

لستُ حربك؛ لقد شهدتُ كلّ معركة لك وأنا أراقبك من بعيد كل ما حمي الوطيس، تابعت كيف تتدخّل بقوّة النّار في كلّ قضيّة تهمّك، غير أنّك لم تقاتل يوما لأجلي؛ لا في قصيدة عابثة ولا في فكرة هاربة من ترتيب أولويّاتك، لا في ساحة الرّسائل النصيّة ولا على رقعة الاتّصالات التي تتلوّن الكلمات فيها بالأبيض والأسود.

لستُ غنيمتك الّتي تخرج من أجلها عن صفوفك، ولستُ ترابك الذي تعتبره الأرض الموعودة للمشروع الأعظم، لستُ حماك وأنت الفارس الذي يستلّ سيف الاهتمام إذا ما اقترب الغياب من الحِمى.

لم تعتبرني الخطّة البديلة، فلا بدائل لامرأة لن يأتي لك الزّمان بمثلها، هي امرأة رحلتَ عنها وليْتَ بيدنا قرار البقاء، لا تعتبرني المخلِّص المرمّم لدمارك ولا المنقذ الذي ينتشلك من بين الحطام والرّطام الذي خلّفه غيابها حسبي أنّي أمٌّ لطفلك دون تضميد جرحك.

بغلاوة حسن عندك، تعالَ ننسَ.

تعالَ نؤسّس مملكة جديدة للحبّ، بمفاهيمنا الخاصّة... فلتكن لمشاعرنا براءة اكتشاف بعيدا عن الرّومنسيات المقلّدة، وملحمة الفقد، وبراثن التعلّق، وألسنة الشّوق التي تحرق كلّ لوحة لنا أوشك على الفراغ من رسمها بمفردي بألوان بهيّة.

تعال ننشغل بمستقبل وحيدنا ونترك الماضي ومجازره وحروبه وفظاعته الدمويّة خلفنا، ربما نحن العوض الجميل الذي كتبه الله تعالى لك، ربّما أنا جزء من استجابة الدّعاء لمّا ناجيته في غسق الدجى:

" اللهم ارزقني ما أنت أهله "

دعني أجمع شتاتك كي ترجع إليّ فلا أخاف ولا أحزن، ألقِ عليّ أثقالك ؛ تعبك ... كما ألقيتُ عليك محبّة منّي، سأكون العصا التي تهشّ بها على ألمك فكن لي سندا أشدّ بك عضدي وعضد ملاكي "حسن".

تسألني صديقتي: ما المتعة في أن تحبّي رجلا معلّقا بامرأة أخرى يتلذّذ بعذاب غيابها؟

وتسألني جارتي: كيف تتحمّلين العيش مع شخص مشغول في خياله بغيرك؟

وتقول أمّي سمرة : أنتِ حلمٌ للكثير من الرّجال، أتركيه وجدّدي حياتك كما فعلت أنا.

أدافع عنك أمام الجميع وأنتصر لك ثمّ أسأل : أيّ ظلم ظلمت به نفسي ؟

لا يا منيب ...

لست أكذب عليهنّ،" أماسي" لا تملّ ترتيب فوضى الأفكار من حولك، وإزالة الغبار عن صناديق السّعادة التي ترمي بها في قبو الصّمت بعد كلّ نقاش، لا أكترث إن حلّت بي لعنتك، سأقاوم طردك المتكرّر وصدّك المتعمّد، سأواجه كلام النّسوة القاسي، وسأتصدّى للملل والفراغ الذي تتركه لي كلّ مرّة، لا أريد لحسن حياة بعيدة عن أحد والديه مثلما حدث معي .

منحدرُ الاعترافات...

(5)

هل نمت؟

كنت أريد مشاركتك مسائي، أريد ملاطفة متحننة ؛ أريدك أن تعرف كيف مرّ يومي، أرغب أن تسألني عن حالي وحال جدّتي، وربّما في سياق الكلام وأنت تداعب رقبتي وشعري تخبرني عن رسائل أختك وعمّتك التي جلبت لكم صحن من المقبّلات، وكيف بكت كثيرا على ظفرها المكسور فجبرتَ خاطرها بتسجيلٍ صوتيٍّ لحسن.

كيف تشتاق أهلك البعيدين وأنا ألمسك بوجهي ولا تستشعر بأنفاسي المشتاقة؟

هل نمت حقّا؟

لم أخبرك بعد عن آخر مقال لي، لم تلعن معي مشقّة استخراج الوثائق الإداريّة في هذا الجوّ، خِلتُ أن الوقت مازال مبكّرا لنتكلّم ثمّ نقطع النّقاش بقبلة، لتتقاطع أرواحنا، ونقاطع كلّ خلاف.

أخمّن في ترك رسالة لتجدها في الصّباح؛ ربّما قراءة لآخر كتاب أشغلتُ نفسي به عنك، ربّما صورة كاريكاتوريّة تحمل في مضامينها الاشتياق بطريقة ساخرة فتضحك أنت على الصّورة وأضحك أنا على نفسي، سأبعث برسالة منسوخة... تلك التي يطلب من مرسلها توجيهها لعشرة أصدقاء حتّى لو كنتُ أنا منهم لأجعل الأمر يبدو عفويّا لا مشروع تبادل كلمات فاشلة... أعلم أنّك لم تنم بعد أنت فقط ترقد بسلام وضريحك في زاوية مظلمة أفشل في إشعال شموعه كلّما اجتاحتني ليالي الوحدة البائسة

منيب...

سأبعثُ لك أيّ شيء ... إلّا ما أفكّر فيه

بعض الرسائل تفقد مضمونها بصراحتها؛ بعض الرّسائل نتحايل فيها على سبب الإرسال، وبعضها تحلّ علينا دون أن يكلّف ذلك حرفا واحدا، وبعض الرّسائل تتمزّق قبل أن تكتمل وبعضها تبلّل بالدّموع فيتعفّن حبرها ولا يتعفّن بوحها.

أعمق الرّسائل هي تلك التي تسبقنا في التّبرير قبل عتابنا، أجملها هي تلك التي تحاول رسم الابتسامة فوق عبوسنا ونحن نبكي خلف الشّاشة بصمت، وألطفها من لا تطالب بشيء سوى الاعتناء

بأنفسنا، أحَنُّ الرّسائل تلك التي تشعرنا أنّ الأرواح تتخطّى المسافة لكن أوضحها هي أفعال لا تكتب.

أليس اعتزال الكلام كلاما أيضا! عدم التّواصل هو شكل من أشكال التّواصل، عدم إرسال رسالة ... هو رسالة أيضا.

هل نمت؟

أقيس سكناتك قبل حركاتك لأخلص في النّهاية بنتيجة تورّطك بما لم تفعل أكثر من تورّطك بما فعلت؛ كلمة جارحة تعادل تماما كلمة طيّبة غائبة عمدا، الأذيّة بكلّ أنواعها تماثل عدم حمايتي من خطر تقدر على صدّه ولم تفعل، قد لا تقف في طريقي لكنّك لا تشجّعني على المضي.

تحمَّل مسؤولية مكانة عالية في قلبي ... أو كن عاديا.

صار اللّيل قاتما، تركته في نصفه فتركني في نصف تفحمي باحتراق لم يكتمل، فأكملته بالرّماد وأكملني بالأحلام والهذيان.

أعود للحاضر ... هذه اللّيلة العشرينيّة في يوليو ستقضي عليّ ؛ ومن شدّة المرض أتخيل:

سماء صافية والأرض تغطّيها الثّلوج وأضحك من شكل أنفك القرمزي، أراقب حركة أصابعك وأنت تصنع كرة ثلج ترمي بها عليّ وأهرب منك ... إليك

أتخيّل سماء صافية والأرض تغطيها الزّهور؛ فتجمع لي باقة وتصنع منها تاجا وسوارا وتخبرني كم أنا جميلة، أو ربّما أسمع صوت البحر يمنحنا سعادة بغير تكلّف... فتكتب اسمي على الرّمل ليمحوه الموج وأكتب اسمك حيث لا تصله الأمواج ثمّ أستند على كتفك ونتأمّل الأفق البعيد.

أتخيّل كيف تهوي الأوراق الصّفراء المتعبة والنّسائم الباردة خجولة من الصّباح، وقطرات النّدى تستعين بالأسطح الملساء لتلطّف الجوّ، ثم تدعوني لفنجان قهوة وتهديني كتابا عن نهضة الأمم ونتناقش كأنّنا في القرن التّاسع عشر.

مرت كلّ فصول التّخيّلات وبقي الفصل الخامس يشهد الحال؛ السّماء فيه ليست صافية والأرض ضاقت بما رحبت، لا أحد يرميني بكرة ثلج ولا تاج زهور على رأسي ولا اسما مكتوبا على الرّمال ولا حتى كتاب النّهضة هديّة بين يدي... حصلت فقط على الانتظار المظلم

والكثير من اللّوم ورشّة عتاب صغيرة، وصورة أخجل من تقبيلها قبل العودة للنّوم من جديد.

لم أتبرعم في الشّتاء، لم أزهر في الرّبيع وانتظرت الخريف يوما بيوم على أحرّ من الجمر بقي الجمر... ورحل الخريف فلا أوقد براثنه، ولا تحوّل لرماد وأراحني.

تساقط الخيال بدل تساقط الأوراق، ومع كلّ ورقة تسقط منّي كتبت موشّحة تعزفني كلحن بدل أن أعزفها.

منيب... دعني أعترف لك:

صدقت معك في كل شيء إلا بشأن رغبة البقاء بمفردي ...

عليك أن تقتحم أفكاري وتتموضع بينها، احشر نفسك بين العقد في حياتي حتّى لو طلبت عكس ذلك.

أمّا عن يوم قلت لك فيه : " إنّي أشتاقك" ؛ لم أقصد بها عتاب ولا استعطافا أو تسوّلَ اهتمام مؤقّت، هي جملة خبريّة تنقل الحال وليس لها غرض طلبي، هي كلمة تكبر وتنمو في اللّيالي البيضاء وتنتشر بين الأفئدة القادرة على العطاء، أرفعها على مسامعك

كتسبيحات العيد الخاصّة بمناسبة سنويّة، رغم أنّها قد تكون فعلا يوميّا كالصّلاة فتستشعرها دون سماعها لتكون أصدق .

كان يمكنني تكرارها دوما دون جعلك تشعر بها لكنّها ستكون مخبثة لم أجبل عليها بخاصّة عندما تلتهب مع اشتعال النّقطة الخضراء في تطبيق ماسنجر ولعلّها لا تعدو عن انتصارك عندما تعاقبني بالغياب المتعمَّد.

أعترف أنّي كنت تقليديّة:

في مثل هذه اللّيلة قبل سنة ونصف، كنت ألعن الحب وأَتّهم بالشّرك من يشعل الشّموع في مقبرة الفراق، وأعتبر أن كلّ من اعترف بوجوده قد ألحد، ومن من سلك درب قلبه فقد ابتدع، وربّما تقطع أيدي وأرجل الكلمات من خلاف قبل أن تتحوّل لقصائدَ...

أما الآن فهو عصر النّهضة بك والثّورة على هجرك المتعمّد، فلم أعد ألعن الحب بل أتوسّله بالدّموع الصّالحة، وأهب الكلمات وقفًا لك، وتدفع الحروف الجزية إذا تشكّلت في قصائد لا تنصف حالك.

وأعترف إنّي كذبت عليك؛ عندما قلتُ أنّي أومن بقدرتك ونجاحك، فقد كنت أعيش إخفاقي وانكساري في زاوية لا تشعر بها، ربّما لا تملك فكرة عن شخص يكره ما يقوم به بعد عشق عظيم، وعندما قلتَ إنّ البشر من طين وأنّك مصنوع من جليد، سمعته كقسم

ببقائك البعيد الذي لن يقترب، هل خوفي من إلقاء بأسي عليك خلق هذه الفجوة التي لا يسدّها غير انتظار المعجزات؟

كتبت على باب قلبي أنّي لا أشعر بالسّلام رغم أنّك تبدأ به المحادثة كلّ مرّة، فقد دخلتُ إلى حياتك في الوقت الذي انتهى كلّ شيء جميل في نظرك ودخلتَ حياتي في لحظة كل شيء فيَّ مهيّأ على مقاسك؛ علّمني كيف أجفّف دمعك دون تحسّس خدّك، كيف أواسيك من غير عناق، كيف أخفّف عنك دون تقبيلك أو المسح على شعرك، كيف؟ وأنت البعيد شعورا وحضورا.

دعني أعترف لك أيضا أنّي لا أخطف القلوب أو أسرقها، أعوذ بالله أن آخذ ما ليس لي عنوةً، وكيف لي أن أبدأ معك بفعل لا أتحمّل وزره ولا حدّه، إن لم تقدّمه لي برضاك، كاملا، نابضا، محبّا، صافيا، وتأتَمِنُني سأوقف محاولاتي بشأنك، وإيّاك واتّهامي بالتّغيّر.

من منّا عليه أن يتغيّر؟

ثمّ هل التغيّر هو من يصنع الزّمن! أم أنّه زمن جديد يفرض علينا التّغيّر لمواكبته فنستَبدِل ونُستَبدَل كأنّنا بضاعة في عصر التّصنيع والباعة من عصر المقايضة؟

لم أتغيّر؛ أنت من تغيّرُ مكانَك داخلي، بقيت أنتمي لعصرٍ يشبهني؛ المظاهر فيه وسيلة وليست غاية والحبّ شريعة لا جناية، والأحلام الشُّجاعةُ لا يلطّخها جشعُ المصالح... ماذا أفعل وأنت تلحّ على مرتبة أدنى! كلّ مرّة تهرول بتسارع غير مسبوق إلى كسر الخطوط الحمراء العريضة وتجعل من كبريائي سوقَ تبادلٍ حرٍّ للخذلان، ثم ترغمني على دفع فوائد الاهتمام الذي تتعمّد تأخيره.

كان جليّا أن المكان يفرّقنا، لكنّ الزّمن هو من يفعل فعلتّه ويَندس بين الأيام ويُدنِّسها، ليخلط أوراق الذّكرى ويشوّه اليقين في المستقبل ويسلب الحاضرَ أمنَه وينكِّد عيشته.

منيب...

لم أتصوّر أن يأتي يوم وأقول هذا: أتبعتك في كلّ شيء، حتّى عندما تُفضّل نفسك كنت أفضّلها عليّ أيضا ، لكن أخشى عليك من مفترق الطّرق وقد لا أحذو حذوك يومها.

لمَ أستصعب بداية خالية من نبرة توجيهك؟ هل التزوّد بتجاربي للسّير في رحلة الحياة لم يعد كافيا حقًّا؟ ثمّ لمَ لا أفترش الرّمل والحصى بدل مخيّم الأوهام ونيران الشّوق في المساء وأغاني البوح المكبّل والاعتراف المؤجّل؟

أنت تعتبر كلّ يوم بداية جديدة، وأنا لا بدايةَ لي غيرك... هذا الفرق بيننا وأخشى أن يكون سببا لفراقِ بيني وبينك.

القَهوةُ و الخُبز..

(6)

الرّابع والعشرين من يوليو: لكأنّه صوتُ الرّعد دون مطر.

في أيّ الفصول نحن! الرّياح خريفيّة، والمروج تشتاق أزهارها حتّى في مواسم التّبرعم، والنّسائم الخجولة تعوّض فراغها بهبوب عنيف لا يمثّلها، والشّمس لم تعد تقترن باللّيل والنّهار فكم من نهار مظلم بالقنوط، وكم من ليلٍ مضيء بالأمل.

القمر المغرور تعوَّد أن يوصف بالجمال مع أنّ أقمار الكواكب الأخرى أكثر عددا وأبهى حسنا، بل ويدّعي الخجل ليختفي بالسُّحب التي لا تملك وجهة في سماء تجهل عظمتها... يُخفي ملامحه دون جأش كجاريةٍ ملثّمة تتراقص حتّى الفجر.

هكذا يحلّ المساء؛ مساءً " أماسي" ... بل مساء المآسي

ليعلن بداية سباق الصّبر نحو الصّبح الذي لا يتنفّس

يتأخّر هذا الأخير...

تتأخّر بداياتي ؛ لتتأجّل النّهاية الجميلة، ويبقى القبح هو شعاع الانسحاب بدل شعاع الشّمس، ويتأجّل معها مسار الانتظار؛ فأنتظر الانتظار بمرارةٍ مضاعفة

أُراسل اللّون الأسود بدل مراسلتك:

يا لون الحداد والفجائع كأنّي أستجير بك من كلّ ألواني التي تخبّئها في جوفك خشيةً عليها ممّا أنت فيه وما أنت عليه.

دعني آخذ حصّتي منك مثل غيري، ثمّ أمضي قدما...

كم أرغب في تجاوزك ؛ أريد أن أتخطّاك وأجعل منك راية داعشيّة للماضي الذي لن ألتفت إليه، كللتُ منك عالقا بي، وسئمتُ منك تقتات منّي، مللتُ تربّصك بي، وتعايشك حتّى مع فرحي، تجعل كلّ شيء باهتاً بما في ذلك العمل الذي أشغل نفسي به عنك.

أعود للبيت بعد يومِ عمل شاقّ ؛ يوم مكرّر يزيدني في العمر ولا أعدّه من عمري، وكان تواجد جدّتي في البيت مفاجأة...

جدّتي... هل هذه أنت حقّا؟

أين كنتِ؟

خُيّل لي أنّي قبّلت جبينك البارد وأنت في سكرات الموت..

كيف؟

أنا واثقة أنّي شهدت مرضك؛ تعبك ... ثمّ هل تخيّلت أنّي حضرتُ جنازتك وبكيتُ على قبرك؟

انفصل والداي وأنا في عمر الزهور، تقول أمّي إنها كانت تجهض كلّما اكتشفت إحدى خيانات أبي؛ لهذا حرَمته منها وحرَماني كلاهما من طفولة عادية، بعدها بسنوات سافر أبي خارج البلد ولا أتواصل معه إلّا نادرا برسائل نصّيّة عبر الإيمايل، أمّا أمّي فواصلت حياتها وتركت الماضي خلفها بكلّ مآسيه، بما في ذلك أنا وأخي فارس. لأنّنا قطعة من الماضي الذي لا ترغب بتذكّره.

سكنّا عند جدتي...

جدّتي كانت تحتوي أمّي بكلّ أخطائها، بمرضها، بهوسها، عثرتها، عبثها، انفعالاتها، ومتصالحة مع ماضيها، فأكملت لي ما تركته أمّي من أمومة غير مكتملة.

لم ينضج مفهوم الأمومة عند أمّي "سمرة" على غراره من المفاهيم، فما كانت تسمّيه في الأمس خيانة أبي هي اليوم تسمّيها نزوة فقط يشترك فيها كلّ الرّجال ... واستبدلت الكرامة بالصّفح الجميل.

أمّي "سمرة" قاسية معي حتّى في الأيّام القليلة التي تأتي فيها إلينا، لعلّها تراني مثل الأوراق التي يستخرجها النّاس عندها في مقرّ البلدية: شهادة ميلاد، أو إقامة، ثمّ شهادة وفاة ... وما بين الورقة والأخرى تتجرّد المشاعر.

زوجها عباس يشتغل في البقّالة؛ لا تثبت رؤيته عندنا إلّا في الأعياد، لم يكن وسيما أبدا، والشّبه الوحيد بينه وبين القمر هو الأفول بدون مبرّرات.

المهمّ أنه لا يعمل مع النساء في دكّانه، غير اللّاتي يخضعن بالقول من أجل بضاعة مزجاة، لعلّهن يقتنصن تخفيضا في سعر الحبوب، فيبدأن موضوع الدّردشة معه بالسّؤال عن زوجه، بعدها يتمايلن في سيرهن نحو العدس وينحنين بأنوثة لتفقّد جودة الحمص، وفي النّهاية يتلمّسنه بنعومة في يده عند إرجاع الثّمن الباقي ويضحكن بعهر قبيل الانصراف.

وأيضا مهمّ جدّا عند أمّي أنّ رائحته لا تفوح بالمشروب والنّساء، وستغفر له غيابه غير المبرّر طوال النّهار إن عاد في المغيب، ربّما لا تحدث الخيانة إلّا ليلا عندها.

في كلّ الحالات هي أمّي.

رغم أنّها لم تكن لطيفة دائما، بل كانت تجبرني على كسر المفاهيم التي تعبتُ في تشكيلها، أهرب منها في كلّ مرّة لحضن جدّتي كي أستنشق مبادئي من جديد.

أنا نادرة العتاب على الأماكن، قليلة اللّوم على الزّمن، لكن هذه المرّة مختلفة ... ابتسامة ما انكسرت، وضحكة تلاشت قبل أن أعرف بوجودها والسّبب توليفة مشكّلة من الأخطاء الممزوجة بتناسق رهيب، أعود من أحضان جدّتي دون التخلّص من أعبائي، دون تفريغ الشّحنة السلبيّة التي حملتها دون وصل التّسليم.

أصبحت كائنا تراكميّا، لا يعرف كيف ينظّم الفوضى داخله، أحيانا أتقمّص دور الفتاة القويّة الشّرسة، غير أنّ أفول الشّمس يقترن بالضّعف دائما، بعض الأحيان أطلب مساحةً شخصيّة، ثمّ أتدارك أنّ المساحة لغيري ولم يعد نبضي يحمل عقد ملكيّتها وحريّة التّصرّف فيها.

هكذا كبرت ...

لمّا بلغتُ العشرين خريفا زارني أبي في عيد ميلادي، استقبلته جدّتي كأنّه مازال زوج ابنتها، ألهذه الدّرجة هي مضيافة؟ أم احتراما لكنيتي ولقبي الذي استعرته من والدي ثم نحتُّه بنفسي؟ أم تراها تحتضن مرحلةً من حياة أمي؟

بعد أيّامٍ من عودته إلى حيث يقيم عرفتُ أنّه لم يأتِ من أجلي بل كانت له مقابلة عمل، ومنح لقائي به رمزيّة عيد الميلاد ليظهر كوالد مهتمّ جاء في بداية مرحلة جديدة من حياة صغيرته الكبيرة، فهمت ماذا تعني أمّي "سمرة" عندما تقول دائما إنه لا يحبّ غير نفسه ويمثّل الاهتمام بتلاعب، ثم فجأة تذكّرت شجارا لهما في صغري تصرخ فيه أنّها ليست من أولويّاته.

تضايقتُ؛ لكنّي لم أعتب عليه، ولم أصرخ حتّى في جوفي، لأنّ الجدّة الأم ضمّدت حزني، ولأنّها استأصلت ورم الأفكار السّلبيّة حتّى بلغتُ الثّلاثين ربيعا، ولأنّها حوّلت تفكيري إلى مساعدتها في تجفيف المشمش.

جدّتي خديجة، إنّها أنت حقّا؟

تبدين أجمل بعد الموت، أم تراك قبله؟ ... صحّتك جيدة؟

طمئنيني عنك... أين غبت طوال هذه المدّة؟

سأبقيك بين ذراعيَّ كما كنتُ أفعل في المشفى، سأكون أكثر أنانيّة وأحتفظ بكِ لنفسي وأغار عليك حتّى من أمّي، لن أفوّت موعد دوائك، سأغسل ثيابك بحبّ، أعدّ فطورك وأمشّط شعرك...ثمّ إنّي قد أتوقّف عن العمل لأعتني بك، أريد قضاء وقت أكثر معك وأحادثك طوال اليوم، فحرقة فقدك تلازمني ولا أريدك أن ترحلي مجدّدا.

تواصل حبيبتي تجفيف المشمش...

كانت تنزع له النّواة وتفرشه على بساط خارج البيت، ولطالما جفّفت الطّماطم أيضا وذلك بعد تقطيعها لنصفين بالعرض ووضع الملح داخلها وانتظار الأيّام تمر عليها، ثم تصنع منها عقدا بإدخالها كالغرز في خيطٍ متينٍ تعلّقه على رقبة الجدار في العلية، كما تجفّف النّعناع في ربطات كأقراط للجدار نفسه.

جدّتي مصنع للتّجفيف، ليس للخضر والفواكه والأعشاب فقط، بل تجفّف الدموع قبل خروجها من المقلتين، وتجفّف سيول

الأحزان بمسحة واحدة من أناملها، هي امرأة إسفنجيّة، تمتصّ غضب الجميع، وأخطاءهم، وحماقاتهم، وتحافظ على مسمات السّعادة فيها.

تأبّطت أمي بكل مفاهيمها المبتورة ، كانت –أمّي سمرة - منزوعة النّواة كالمشمش لمّا تطلّقت، فبسطت لها الحياة، وسهّلت لها الموصلة والتّعايش، ولمّا جاء أبي في زيارة ميلادي قبل عشر سنوات علّقت على رقبتي عقدا من الطّموح، وأقراطا من الأحلام كجدار العلية وها أنا في الثّلاثين أتحمّل كدري لوحدي بعد موتها دون أن تفعل الأيّام فعلتها كما تفعل بجرح الطّماطم.

هل ماتت؟ ... رياح جدّتي جنوبيّة، ربّما زجّت بها الرّيح داخل الغرفة.

مشيتُ في موكب جنازتك وأنت مازلتِ على قيد الحياة، حتّى في أربعينيّتك حضر الجميع إلّا أنت ... أين كنتِ؟

عالقة أنا في أدمع الشّتاء الماضي، أكدّس الأشواق مؤونةً للصّيف، وأحاول مصالحة القلم كي يكتبني بدل الكتابة به، ويمنع عنّي رسائلَ تحرقني قبل أن أحرقها، فتحتفظ بي الذّكريات كتابا في رفّها بدل عدم الاحتفاظ بها حتّى بين همسات النّسيان.

من بعدكِ نسيتُ كيف أحمل القلم، وأنتِ في صغري تضعين القلم أمامي كي أحبوَ إليه، وتبعدينه كلّما اقتربت منه كي أواصل تقدّمي إليه، علّمتني أن أسعى وأطمح لامتلاكه؛ ولمّا كبرت توقفت عن السّعي فامتلكني.

مرّت الأيّام وعلّمَتني كيف أمسكه، أحمله، وأكتب ... والآن أنا أتماسك به ويحمل أثقالي ويكتبني قصيدة مسلوبةَ القافية.

كم حِكتِ لهذه الأنامل من قفّازات بخيوط قطنيّة وجلسة مبتسمة لا تفارق صفحات ملفّ طفولتي... واصلتُ النّسيج في غيابكِ؛ أنسج النّصوص بخيوط المجاز النّاعمة وأغزل الحروف للمشابهة والمفاضلة والعطف، فأنتج وشاحا من البوح، وقبّعة من الأرق، وجواربَ مطرّزة بالثّبات ... إلّا القفّازات... لا أجيد جماليّة أسلوبيّتها، ولا أتقن جلسة حياكتها التي تمنّيت أن أرثها

هل تتذكّرين حكاية البنّ والخبز؟

قلتِ أنّه يجب أن تمرّ القهوة بمراحل لتحقّق ذاتها، فكان حَبّ البنّ يتصوّر أنّ رحلته انتهت ببيعه، لكنّه وجد نفسه يتحمّص على نار هادئة، فلم يعرف الحكمة من ذلك حتّى سمع الجار يتغزّل في الرّائحة من خلف النّافذة، فظنّ البنّ أنّ سبب وجوده في البيت هو

هذه الرّائحة الزّكيّة؛ خاصّة عندما تُرِك ليبرد قليلا، فكان سعيدا جدّا بالفرج الذي أبعده عن النّار، وفرح بتحقّق وظيفته في الحياة، ولم يلبث طويلا حتى وجد نفسه يُطحن ويُسحق، فتمنّى لو يعود للنّار فذلك أهون عليه ممّا هو فيه، لكنّه في الحقيقة صار أقوى بعد التّحميص؛ والشّدائد ستقوى عليه أيضا، وعندما وُضِع في زجاجة عرف أنّه سيَغلي وهذا أسوأ من التّحميص والطّحن؛ لكنّها المرّة الأخيرة وهذا ما قد يحقّق الغاية من وجوده، فقد تحمّل وصبر -ومازال سيصبر- ليكون شيئا لا يشبه حَبّ البنّ ولم يحلم في حياته أنّ الله تعالى بحكمته يجعله سائلا في فنجانٍ يصاحب الكتب.

أمّا القمح فهو أذكى قليلا؛ يعرف منذ زرعه أنّه مخبوز، فكان سعيدا في كلّ مراحله من سحق وعجن وطهو... غير أنّه لم يُؤكل في وقته وعرف أنّه لن يسدّ جوع أحد، وفات أوانه، وتمّ استبداله بخبز طازج جديد، فبقي حزينا لم يحقّق ذاته، ثم قرّر أن يتخلى عن طراوته ويبس ويقسو كما قست عليه الحياة ولم تمنحه فرصة، ظنّ أنّه سيتعفن على هذا الوضع، لكنّه لا يعلم أنّ الله تعالى أراد له أن يُـقطع يابسا ثم يُغمس في البيض المخفوق بالحليب ويقلى، ثمّ يرشّ عليه السّكر والزّعتر ليُقدَّم بطريقة لم يحلم بها عندما كان خبزا؛ أصبح كعكة صباحيّة أشهى ممّا كان.

أعرف العبرة يا حبيبتي... لكنّي أكره أن أُسحق في غيابك ولو حقّقت ما لم أحلم به.

كم اشتقت طبخك! اشتقت كعك الخبز اليابس بالقهوة صباحا قبل ذهابي للجامعة، اشتقت رائحة كسكسك يفور في المناسبات؛ وطحنك للتّوابل ثمّ مزجها، ماذا أتذوّق من بعدك؟ لا السّكاكر حلوة الطّعم، ولا رائحة المخبوزات زكيّة، ولا صحن الفواكه المشكلة يفتح الشّهيّة، نفسي تقطع العلاقات مع كلّ غذاء وتسحب سفراءها من بلدان الطّعام قاطبة لكأنّها -نفسي- تأبى المواصلة وتستثقل كلّ شيء.

الآن عدتِ، وسترجع تلك الأيام أليس كذلك؟

لمَ لا تجيبيني؟

فيمَ اقترابك من الدّرج وفتحه؟

لمَ تعطيني دفتر مذكّراتي؟

أمسكته؛ فاختفى من بين أصابعي ... هل أفلته أم أفلتني؟

ربّما سقط منّي؛ أبحث عنه عند موضع قدمي ولا أجده، كأنّ المفكّرة تقول: لا تكتبيني، أنا من سأكتب قدرك هذه المرة

جدّتي؛ أترين لقد اختفت مذكرتي! ... جدّتي خديجة، أين أنت ؟

لقد ضيّعتُ مذكّرتي التي كنت أبوح لها بضياعي، كيف تختفي منّي من كنت أختفي عن الجميع في حضرتها؟ هي سري الجميل فكيف مضت سرّا عنّي؟

لقد كانت في الدّرج طوال الوقت فأين هي؟ عبّرت عن فقدي في صفحاتها فكيف بها أصبحت فقيدتي متعمّدة؟

أنا أكلّمك جدّتي ... هل ذهبتِ؟

لم أتصوّر أن يجمعني غياب جديد مع مذكّرتي، خِلت أنّ ورقها يحنّ لهمسي ولمسي، ويستمتع إن نشرت حطامي النديّ عليه ليجفّ، بل أسكنها كما تسكنني وأسكن إليها في كلّ مساء.

ثقيل عليّ أن يهجرني حرفي وهو يعلم أنّي لم أعد أتشبّث بالرّاحلين... كتبت ذلك في المقدّمة، وفي ثاني صفحة دوّنت خاطرة عن السّعادة الكاملة، وأذكر أنّ آخر ما كتبته فيها كان عن منيب، عن الحبّ؛ ذلك الذي يتجسّد كلّ مرّة بصورة جديدة.

كتبتُ: إن أحببت فلن أفلت يدي أبدا، وقلتُ إنّي أحبّ الكتابة عليها؛ فلمَ أفلتتني وقد كانت في إحدى المكتبات تتمنى فقط لو تنال شرف توقيعي؟ تراها ضمنت بقائي ومغفرتي فأساءت؟ كما ضمنني منيب! تعلم أنّها لن يعوّضها دفترٌ ثانٍ حتى لو كتبتُ الخواطر نفسها...

لا يهمّني فقدُ الجميع لأنّك عدتِ جدّتي خديجة...

كيف لا يكتمل اللّقاء حتّى تغيبي من جديد ؟ جدّتي سألتك أين كنتِ ولم تجيبيني؛ أين أبحث عنك هذه المرّة وكيف سأعثر عليكِ؟ هل لي بيوم آخر أعود فيه متثاقلة من العمل وأجدك في البيت!

قاطع منيب استفهاماتي بسؤال آخر: ألم تجهّزي نفسك بعد!

نسيت إلى أين كنّا سنذهب... وما طبيعة السّفر وغرضه! لعلّه يقصد الحياة، أليست هذه الأخيرة رحلة لا بدّ من أن نجهّز أنفسنا لها!

ثمّ هل أتبعك دون تأويل مالا أستطيع له صبرا؟

هل نأخذ حسن أم نتركه مع جدتي؟

ثم أين جدّتي ...هلا أجبتني؟

مابك؟

إلى أين سنذهب؟

أجابني: " إلى محافَظة القدس"

لعلّها تأبى إلّا أن تكون المحافَظة الشّريفة والمحافِظة العفيفة

إلى زهرة المدائن...

يا شريان العروبة؛ ماذا فعل بك السرطان ولم يتداعَ سائر العرب بالسّهر والحمّى؟

يا صلاة العيد المؤجّلة! وخطبة الجمعة؛ وبوابة الفريضة وقبلتها الأولى؛ أليس تارك الصلاة جاحدا؟ فكيف بمن يبيع مدينة الصّلاة بثمن بخس؟

أيّتها الأنوثة الطّاغية والرّجولة المكتملة هل تعمى الأبصار عنكِ أم القلوب؟

كيف تحفظين نقاءك وتحافظين على روحك رغم نجاسة الدّموع التي تذرف عند أسوارك من المحتل! رغم تعفّن أقدامهم التي تدوس ترابك... تراب الأنبياء، ونحن أولى النّاس بإبراهيم عليه السلام.

يا نور السّلام! رغم الظّلم الذي فيك والظّلام الذي حولك

يا نور الغسق! من بعدك اللّيل سرمدي ولا أماسي في الوجود، يا باب الرحمة المغلق الذي يحول دون القبلي ودون قلبي! وباب التوبة الذي تطلع منه الشمس من مشرقها! ومربط البُراق في ليلة المعجزات!

أدخل عليك من جميع أبوابك وكأنّي حاجةٌ في نفس يعقوب، فهذا باب العمود والشّريان إلى نبض دمشق ووريد الشّام وحلب، هو غلاف لكتاب جامع من حجر يحمل ألواحا فنيّة عمرانية داخله، فتتأرجح صفحاته بين الفاطميّين والمماليك وحتّى العثمانيين... فسيفسائي الوجه يعصب رأسه بعبارة الشّهادة بين كتفين: فالكتف الأولى هي برج اليمين الذي يلوّح للمستقبل بأمل، والكتف الثانية هو برج اليسار الذي يحمل أوزار التّاريخ ورزاياه، وكلاهما شديد على الأعداء رحيمان فيما بينهما.

ما كان منّا إلّا الدخول من خلاله إلى ساحة الشّهداء، أو ربّما هي السّاحة الشّهيدة والشّاهدة على ارتفاع الرّايات في الأفراح والأقراح ومكان لطلب الرزق.

وتطرق صورة القبّة الصفراء عتبة العين فتهيمن على المنظر، وتطبع المكان بالتفرّد والتميّز عن غيره من البقاع.

أجد نفسي أمام مفترقِ طرق، فأتّجه شرقا جهة باب السّاهرة في الجهة الشرقيّة إلى حارة السّعديّة، ويسبقني في الأزقّة منيب، كان يسرع في الدّرج، ولا يبطئ بعده... حتّى إذا ناديته لم يلتفت لي ولم يخبرني وجهته حتّى ضيعته؛ أو ربّما هو تعمّد أن يضيّعني.

دخلتُ حارة "باب حطّة"، رائحة الكعك مميّزة فأخذتُ واحدة لِحسن وسألت البائع عنك فقال إنّه لم يرك.

منيب...

أحمل ابني وانا أسير في الحيّ الشّعبي، لعلك عند" باب حطة"، باب لن أبدل فيه قولي ... هل تسبقني الدخول إلى جنّة الدنيا؟ لا أشتم عطرك في الزّقاق ولا ألمح لك أثرا وأنا أمشّط المكان بعيني.

وأسير حتّى "باب الأسباط" هو شرقيّ الهوى، أسد الشّجاعة بين شبلين متقابلين في كلّ جانب، هو باب البلدة ويقود للأقصى المبارك عبر باب داخليّ يحمل الاسم نفسه... ألتفت بحثا عنك ولا أجدك فألتقط لِحسن صورة وهو يستند على الجدار، أنتظرك وأنا أصوّر المكان ولا أجدك في أيّ زاوية، أين تختفي هكذا؟ أليس من الأجدر بك أن تكلّمني عن أصل تسمية الباب وتاريخه! ونأخذ صورة جماعيّة مع ابننا الذي اخترنا له تسمية على سبط من الأسباط؟

تعلم كم أحبّ هذه الرمزيّات وكم أحبّ فكرة تواجدي معك هنا فأجتمع بأحبّ إنسان في أحبّ مكان لكنّك تحرمني من الكمال لأبقى أسعى إليك في كل لحظة وتعلم أنّي لا أبرح حتّى أبلغ.

أتعجّب من عدم رؤية أيّ صهيوني، تصوّرت أن أجد الأبواب مغلقة إلكترونيا وحواجز تمنعنا الدّخول، وتخيّلت أنّك تسبقني للمسجد الأقصى المبارك حتّى إذا حصل اشتباك نكون أنا وحسن بعيدين عنه... لكن الدنيا أمان، وإن لم يكن اختفاؤك بغرض حمايتي فأين أنت؟

أدخل أخيرا للمسجد المبارك فيقابلني المسجد القبلي بالقبّة الرصاصيّة.

حبيبي حسن:

ربّما أنت لن تفهم ما أقوله لك؛ لكن أريدك أن تكبر وأنت تعرف أنّ كامل المنطقة المحاطة بالسّور هي المسجد، والمسجد هو مجمع عمراني يمزج المباني من عصور مختلفة، وكلّ شبر من هذا المكان مبارك، ولكلّ باب مغلق أو مفتوح حكاية.

أتركك صغيري لتجري خلف الحمام بمشية الأطفال في مثل سنّك، وألتفت خلفي نحو الجهة الغربيّة أين تصطف المداخل على استقامة واحدة، فأجدك يا منيب عند "مئذنة السلسلة" ارتسمت ضحكة على ثغري و فرحة في قلبي الذي وجدك أخيرا ..

أقترب منك ببطء؛ من خلفك دون أن تشعر بي، أتأمّلك مع كلّ خطوة كأنّي أمام برج إسلامي حديث الطّراز يضع ملف الانضمام لهذه المباني المتجذّرة في التّاريخ ليتواصل بك العطاء الحضاري فتكون أنت همزة الوصل المباركة بين ماكان وما سيكون.

وقبل أن أصل إليك... جاء الاحتلال يمنع مساجد الله أن يُذكر فيها أسمه ويسعى في خرابها ودمارها؛ طار سرب الحمام، ولا أجد ولدي الذي تركته مع طيور السّلام ... ألتفت لمنيب فلا أميّزه في الاشتباك

ضاع حسن...

صرت أركض بهلع في كل الاتّجاهات، أفتّش بين الأقدام عن وحيدي الصّغير وأصوات الرّصاص التي تزداد، لست خائفة على نفسي من طلقة طائشة بقدر فكرة ماذا لو يحدث لابني مكروه.

الجميع يجري هربا بذعر في الزّقاق، ولا أحد استوقفته وسمعني عمَّ أبحث أو ماذا أريد! يرونني مجنونة فقدت عقلها لا أمًّا تتوسّلهم سؤالًا عن فلذّة كبدها، قاطع كل ذلك انفجار هائل

وصوتُ تكبير:

" الله أكبر"

أنا ... نِيَّة

(7)

" الله أكبر"

" لا إله إلا الله "

أكمل المؤذّن أذان الفجر الذي امتزج التّكبير فيه مع الحلم، فأجد نفسي في مكاني خائفة من دويّ انفجار لم يحدث، وأستذكر تفاصيلَ أجهل إن كانت الحمّى سببها، ثم أنظر للسّاعة التي تشير إلى وقت تحقيق الأمنيّات ولا أدري ماذا سأتمنّى!

هل انتهت هذه اللّيلة أخيرا؟

قبل أيّام زاد وزن هاتفي كثير؛ اوأصبح ثقيلا بأربع مكالمات واردة منك يا منيب

ثم تتّصل للمرّة الخامسة فأردُّ:

- " ألو نعم "

- " أماسي، لا ترحلي ..."

أغلقتُ الخطَّ في وجهك ... تتّصل لأنّي لم أعد أنتظرك؟ تطلبني أم تطلب اهتمامي؟

من يومها وهذه العبارة تتكرّر في ذهني : " أماسي، لا ترحلي..." أنام وهي تتردّد على مسامعي في كلّ الاتّجاهات.

منيب...

هل ستبقى تتوسّط الفراغ بين الكلمات ؟ فتمنعني من شقّ الورقة وتمزيقها خوفا عليك من كسر جديد، بينما يبدع قلمك في كل شيء ويغفل عن ذكري .

يرنّ هاتفي ... النّغمة نفسها لكنّ الرّنين بنكهة مختلفة تحمل لوما دفيناً، وحبّا عقيماً... خوفاً... عتاباً... أو ربّما ثقة مسلوبة الرّخصة تسأل عن تموضعها بين العابرين، وأخشى أن تجعلني المكالمة أقرّر العودة.

أمّا اليوم ... في هذه اللّيلة بعدما صار اللّيل قاتما، تركته في نصفه مستسلمة للنّعاس فتركني في نصف تفحّمي باحتراق لم يكتمل، فأكملته بالرّماد وأكملني بالأحلام والهذيان.

هي ليلة تتأوّه حرارتها بسحب رماديّة تزيد الجوّ خنقا، وأبادلها العتمة والآهات بأحلام موقدة ببراثن المرض، فلا سُحبها أمطرت ولا احتراقي اكتمل بمقايضة الموت على لحظة الرّحيل.

بعد ما أجبرتُ نفسي على النّوم والحمّى تقطّع ما بقي من أشلاء غير ممزّقة منّي، رأيت فيما يرى النّائم أنّنا تزوجّنا ورزقنا بطفل يشبهك.

مشاعر الأمومة حتّى في الحلم جيّاشة، لقد رأيتك زوجا وأبا في الحلم؛ وأنت البعيد في الواقع، وصديق وهمي في الموقع بنقطة خضراء تقترن بصورتك الشّخصية، لتعلن حضورك في جهاز لا يملك إحساسا لكنّه يعبث بالقلوب ويجعلها تدمن ما فيه، وتدمن من فيه.

أيّهما أصدق تعبيرا! كونك حقيقة سعيدة أعيشها في الحلم؟ أم كونك همًّا ووَهما أموت به في الحقيقة ؟ وأيّهما أكثر خدشا! كون حبّك لها يسطو على أحلامي! أم حبّي لك لا يلامس حتّى الواقع؟

سيّد المعاني! أخلطتَ طاولة المفاهيم: لا أدري أين أرى أضغاث الأحلام أفي اليقظة أم في المنام؟

كيف نرزق بالحسن وعلاقتنا بقيت دون اسم لاتشبه أيّ شيء وكلّ شيء يشبهها...

نحن ندقّق في المفاهيم إلا المفهوم الذي قد يحتوينا، هل ندّعي الصّداقة ولا أحد يَصدُق الآخر! أم ندّعي الحب؛ ذلك الشعور النّاضج عندي والمحترق عندك، والمتلاعب بكلينا، أم نحن غريبين وما لقاؤنا إلا شارة بداية العدّ التّنازلي للفراق المحتوم!

في الحلم تزوّجتك وكان ابننا حسن وهاأنا أنهض عزباء لأتمخّض ألم الغياب وأنجب أشواقا كأنّها غير شرعيّة، لا تعترف بأبوتها ولا بانتسابها إليك، لا تمنحها اسمك ولا تتركها للتبنّي والكفالة لمن هو قادر على احتواء تبرعمها.

أترك سريري متثاقلة بعزوبيّتي ووحدتي، وحضنٍ خالٍ من حسن، وقلب متآكل بمنيب ودمع متحجّر في مقلتي شفقة على نفسي، وأذهب لمكتبي أتفقّد مذكّرتي ... فقد رأيت جدّتي "رحمها الله " في بيتنا على غير العادة وأعطتني دفترا اختفى واختفت معه.

رحلت جدّتي عنّي في بداية الشّتاء وقد حلّت العطلة الصيفيّة بمزيد من الفراغ؛ دون عمل، دون طلبتي، وأعيش وحيدة مع هذه الجدران

التي تزيدني رهبة كل يوم رغم اتّصالات أمي سمرة، ورغم إيمايلات أبي.

لا أساور الطّماطم ستعلق في العلية ولا رائحة النّعناع اليابس في البيت، ولا حتّى المشمش منزوع النوى يجفّ خارجا، حبيبتي منذ العزاء لم تزرني في أيّ حلم لكنّها في هذه اللّيلة أعطتني ما يؤنسني في وحدتي عند غيابها... وغابت وغاب الدّفتر وزاد بؤسي غيابُك أيضا يا منيب.

لقد رأيتني أتجوّل في البلدة القديمة وألتقط الصّور في أبوابها وداخل الأقصى المبارك، ثم استيقظتُ فزعة من صوت الانفجار الذي حدث بعد اشتباكك... عرفتُ أنّك ستقاوم لهذا لم تسمح لي أن أكون جزءا من انتصاراتك، فأضعتك وأضعت الولد ودخل مسمعي تكبير أذان الفجر على أنه تكبير الاستشهاد.

منذ أيّام قبل قرار الابتعاد ... كالعادة أعود متعبة لهاتفي: أتفّقدك يا منيب إن كنت متّصلا بعد كل صلاة فجر، وأقرأ المحادثة الأخيرة قبل أسابيع والّتي قلت فيها :

" أماسي ... سأغيب... أراكِ بخير"

هل عليّ أن ألحق بك من باب لباب كما فعلتُ في الحلم؟ وأنت لا تكترث لمن يهرول خلفك ولستَ الذي يلتفت لمن يلحقه، بل أنت الذي تسعى للبعيد الذي لن تصله.

محزن حمل هاتفي دون الصّور التي التقطتُها عند كلّ أبواب القدس الشريف، دون تخليد لذكرى حسن في باب الأسباط إلّا في ذاكرتي.

كم أعدتُ قراءة آخر منشور لك على صفحتك في فيس بوك، وأشعر في كلّ مرّة أنّي أسكنت قلبي في وادٍ غير ذي زرع، وقد كتبت فيه:

" قد تجمّعت في داخلي وحولي كلّ معاني الاشتياق "

لطالما عرفتُ أنّك تستقطب المعاني ... وعرفت أنّه اشتباك جديد مع الاشتياق ولا أدري أيّ انفجار سينهي كابوس الواقع، عرفت أنّها حرب جديدة لك مع الحنين إليها؛ تلك الغائبة التي أحببتَها بقدر حبّي لك في غيابك، وتريدها بقدر ما أنا بحاجة إليك.

هي ليست لك... وأنت لست لي، كلانا يضمحلّ في استطرادات لا تكمل نصّه، كلانا يعرف أسر الشّعور وزنزانة الفراغ والشّغور.

أيُخلى سبيل الوصال؟

أيعتقنا الغياب؟

هل ستعود هي لك وأراك سعيدا معها، أم تعود لي وترى كيف أسعد بك ؟

أم لا هي التي تعود ولا أنت الذي تبقى ولا أنا التي أنتظر! ربّما لكلينا فرصة ... وربّما ستبقى في كلينا غصّة.

أترك لك رسالة نصيّة: " أعلم أنّي لستُ حربك... كن بخير"

وأمسح المحادثة التي أهرب من غيابك إليها، ثمّ أقوم بحظرك وأنا أسأل نفسي: لو لم ألتقِك في ذات مصادفة كيف سأكون الآن؟

ماذا لو لم يُحتلّ الوطن؟ أيّ ثورة سيرويها الجيل السّابق لنا وأيّ مجد كان سينقل إلينا؟ وأيّ أنفة سنكون عليها وهل كنّا سنعرف قيمة الحياة الكريمة ؟

ذلك الشر الذي يظهر - في اللّحظات الأولى- أنّه لا بدّ منه، مع الوقت عندما تلتفت إليه يصبح خيرا لم تتوقّعه.

نحن نُقاسُ بحدّة الأزمات، وبشدّة الصّدمات ... نكيل بعضنا بمكيال التخلّص من المستدمرين، وانعكاس شخصيّتنا ما هو إلا

اللّحظة التي نوقف فيها الاحتراق، لنكون أقوى وأذكى وأكثر استعدادًا للصّدمة القادمة، تماما مثل البنّ الذي تحمّصه جدتي "رحمها الله".

لهذا أعتبر تجاوزك ثورتي؛ أستعير البارود من القلم، وأسقط الخطط الحربيّة على التملّص من الحنين، وأشَبِّه الملحماتِ الدّامية بسطوة الأرق .

نحن لا ننسى... وكيف نتجاوز وقد سقط الحرف شهيدا، وعلى الورق جرح لا يندمل، وفي قلب الدّفتر انطباعات غامضة، وفي كلّ ساعة أرقام جنائزيّة تجرّد الدّلائل كالأرامل وتترك المعاني كالأيتام .

نحن لا ننسى؛ خوارزميّات العقل لا تستأذن التّدوين، نحن نرسل المواقف إلى الدّرك الأسفل من الذّاكرة حتّى إذا عادت تفاصيلُ مشابهة استرجعنا ما مررنا به وتصرّفنا بحنكة.

أقول ذلك لطلبتي في الامتحان: ما مررتم به محفوظ؛ فقط يجب أن يُنبَّه ذلك الجزء الخاص بالمعلومة حتّى تستجيب.

جعلتني الحمّى أفهم أنّ نسيانك هو إعادة ترتيب أولويّات، قد لا أنساك كشخص لكنّ المشاعر لها منحنى متذبذب؛ تصل الذّروة

أحيانا وربّما لها نقطة انعطاف لا تعود العاطفة بعدها، أو قيمة حدّيّة لن نتجاوزها... وقد تنتهي عند النّهاية السّالبة التي لا تنتهي.

وفهمتُ أنّ السّعادة المكتملة ليست فقط في مساعدة الآخر، بل أصلها الرّاحة الداخليّة، وإخماد الحروب الأهليّة بين الأفكار المتضاربة أو بين المشاعر المتناقضة.

صدقا.. إنّ أدمى صراع هو مواجهة العقل للقلب، صراع المنطق مع العواطف اللّامنطقية، ثمّ يدفع الجسم ضريبة الحرب بالوكالة داخله بالسّهر والحمّى، فهو مسرحٌ للأحداث من جهة ومؤرّخ متحيّز من جهة أخرى، والحلّ الوحيد للعودة إلى السّلام الرّوحي هو إدخال من يحول بين المرء ونفسه... من هو أقرب من حبل الوريد ويعلم ما نسرُّ وما نعلن.

وضعتُ قلبي وعقلي أمام خالقهما في محاكمة عادلة، فانتصر المستضعف الذي ألزمته اللّجام طويلا، أما المضغة المتجبّرة يسار صدري والتي قادتني للهاوية فقد بايعتُ طواعية.

صرتُ شخصا مختلفا يا منيب...

لكم هرولت مبتعدة عنك... لكن إليك، كم مرّة عزمتُ على نسيانك بالكتب لأجدك فيها، تعلّمت أن لا أهدّدك بالرّحيل، ولا أحزم أمتعتي حتّى، بل يكفي أن لا أعود في المساء مثل فارس وأتحوّل للغائب العزيز، لعلّك ترزق باشتياقي فأنا في البعد أشهى وأنقى.

أتساءل من جديد: هل تغيُّرك هو من صنعني! أم أنّك منذ البداية صناعة جعلتني أتغيّر؟

وهل كان ذلك تمسّكاً بك أم تمسّكا بالجهد الذي بذلته من أجلك؟

كم سعيتُ جاهدة وكم قاومتَ جهدي، حتّى عندما أهديتك كلماتي جعلتني أغار منها؛ لأنّها أثارت فيك الإعجاب الذي عجزتُ عن اقتناصه، تحبّ اهتمامي ولا تحبّني، تريد اقترابي المتكرّر ولا تقبل قربي، تتغذّى منّي وتمنع أن أنمو بك.

" أنانيٌّ"

حضورك منعكَسٌ شرطيٌّ للألم مثل غيابك، أمّا غيابي هذه المرّة فهو على محمل الرّتابة التي لا تحبّها... لطالما تركتك، وفي كلّ مرّة أقطع مسافة أطول لأعود إليك، لأجدك مختلفا ومخيفا، في كلّ مرّة

أشعر أنّي استُهلِكتُ للحدّ الذي لا يمكنني أن أقدّم المزيد من القرابين التي لا تُقرّبني ولا تجعلكَ تقترب.

هل تركت لي أوجاع ماضيك مصادفة أم أنّك حملتني بالأوجاع للمستقبل قاصدا؟

بتُّ نسخة منك، نسخة من شخص متآكل ينفض أيدي المحبّين من حوله لأنّه في يوم ما تورّطَ بأذرع لا تضمّه...أصبحتُ جلّادا أجيد اللّعب بالسّوط، لأنّي في يوم ما كنتُ ضحيّة رُسِمَت على ظهرها خريطةُ الضّرب التي لا تعرف اتّجاه الشّمال.

أقولها بالفصحى: صرت " أنانيّة" مثلك

و أريدُني أكثر ممّا أريدك، أحبّ نفسي وأكرمها بالتّخلّي عن نصفي والتّخطّي ببتر طرفي، كي أشفى، سئمتُ المرض، وسئم منّي الأرقُ.

أقولها بالعاميّة : "أنا ... نيّة"

و"النّيّة" في اللّهجة الوهرانيّة تعني الطّيبة لدرجة السّذاجة التي لن أكون عليها بعد الآن.

كانت أمّي "سمرة" تصفني بذلك دائما وفهمتُ أخيرا ماذا كانت تعني بقولها:

" يبدأ الصّبر الحقيقيُّ عندما ينفدُ الصّبر"

الماضِي يطرقُ البَاب

(8)

الخامس والعشرين من يوليو: التّاسعة صباحا.

أشغل موسيقى فيروز" زوروني كلّ سنة مرّة ... حرام تنسوني بالمرّة" زيارتك تقتصر على الأحلام فقط، حتّى مرّت سنتان على لقائنا الأوّل، أم نقول سنتين، ما محلّ إعرابها في نصوص الزّمن؟

هل أجرّها ذليلة من الماضي إلى الحاضر كي أُعاتبَني! أم أرفعها على العاتق بكلّ هذا الثّقل! تُراني أنصبها كخيمة الانتظار التي تسكنني بدل أن أسكنها، أم أخترع لها حركة تليق ببوح القدر ونحوِه الذي لا قواعد مضبوطة فيه!

هه... بوح القدر؛ أسميته حسن

كان نسمة لطيفة مرّت سهوا في فضائي السّاكن، لقد كان حلما، رؤيا، كابوسا، حديثَ نفس، هذيانا... لم أعد أفرّق

أغنية فيروزيّة أخرى، أتمتم الكلمات معها بين شفاهي البيضاء المتشقّقة، وأتعمّد تناغم وقع خطواتي مع الكلمات: "سألتك حبيبي

لوين رايحين" لم تكن الأغنية تقصد لقاء الحبيب ربّما كانت تستفسر عن النّهاية... كانت تسأل عن الهدف من السّير إن كانت الوجهة مجهولة.

هل يكفي أن نستمتع بالطّريق رغمَ أنف الغاية التي ترقد في أعلى البرج تنتظر قُبلة الأمير!

وصلتني رسالة من أبي المغترب على الإيمايل: "لن أقبل أن تعيشي بمفردك ... جهّزي وثائق السّفر، ستعيشين معي"

أبي عاش طفولة مشرّدة مع أختين، قاطعتا صلتهما بنا وكأنّنا غلطة هربت للواقع من إحدى سهراته، ذنبنا أنّنا أولاد سمرة.

لم تعلّمنا جدّتي أن الحقد يورث، بل كانت تستقبل أبي بحفاوة وتقول:

" سأعدّ الشّخشوخة، أبو فارس يحبّها"

كان يأتي إلينا بطاقم رسميٍّ مع ربطة عنق يختلف لونها سنة بعد سنة، ويزيد انحناؤها على بطنه الذي يكبر عاما بعد عام؛ كأنّه في عشاء عمل معنا لا للقاء فلذّات أكباده.

يبدو كمسؤول خلع عنه المسؤوليّة.

كان متحرّرا جدا... شجّعني على نزع الحجاب في غياب أمّي، يقول: إنّ الله يعرفنا كما نحن ولا داعي للنّفاق مع خلقه وإخفاء رذيلتنا بالحجاب.

لم يدرس أبي، توقّف في مرحلة الثّانوي متخصّصا في اللّغات الأجنبيّة، ومع تعزيز اللّغات بالتّجارب القاسية أصبح بلدُ الشّقراوات المنفتحات في الفكر والمنتفخات في بعض أجزاء أجسادهنّ وجهةً له بعد التخلّص من قيود أمّي سمرة وعظامها البارزة.

كيف سافر؟

لم يكن أخي فارس يستصيغ تواجده معنا، فكان لا يبقى عند مجيئه، ولا أدري مصدر حقده عليه، لعلّها دماء فاسدة ورثها من عمّاتي فجنت على علاقتهما، فلا أبي الذي يسعى لكسب ابنه، ولا فارس الذي يبحث عن رضا والده.

لمّا سمع أبي بهجرة فارس لم يبدِ ذلك الأسف الذي توقّعته، وردّ ببرود في مكالمة هاتفية:

لماذا يتهوّر؟ ... كان يكفيه أن يجلس معي ويفاتحني بموضوع التّأشيرة والسّفر.

رسالة أخرى تصلني منه الآن: "أعلم تعلّقك بالبيت وبالذّكريات فيه، تعالي إلي وستتجاوزين أحزانك ... أعدك".

هل يقصد أحزان القهوة ؟

تخيفني ضغوطات الصّباح أكثر من اللّيل إذا يغشى، عندما أتفرّغ في المساء وأجلس مع نفسي أشعر بالاختناق والقلق ثم الأرق، لكن على الأغلب ذلك ليس حزنا ...

حقيقة الحزن هي في عز الإنشغال، في ساعات طويلة من التّظاهر والصّمود: أصنع شيئا وعقلي عند شيء آخر، أقول ما لا أفكّر به، ألبس ألوانا لا تناسب حداد قلبي، ثمّ أسير إلى مكان أعلم أنه لن يحتوى هذا التبعثر والازدواجيّة، أقوم خائرة القوى من مكاني لأبتسم في وجه الجميع، فلا ذنب لهم في جزعي... قد أهرب لكتاب فيهرب فكري منّي، وبالتّأكيد لن أسمح لنفسي بالصّراخ والتّكسير وفقد الأعصاب

ربّما أعدّ القهوة للمرّة الأخيرة في هذا البيت، ستشتاق الجدران لرائحة البنّ وكعك الخبز، وستلين الحيطان رغم صلابتها لذكرى جدّتي _ رحمها الله_ وستذكر كيف كبرنا أنا وفارس بين هذه الزّوايا، وفي كلّ ركن لنا قصة.

ستبقى ضحكاتنا عالقة على الدّهان وأقدامنا الصّغيرة لها أثر في البلاط، أمّا طاولة العشاء فسيتأخّر أفرادها أبديّا وتبقى كراسيها شاغرة دون الجدّة الأمّ، أو الحبيب الأخ، ودون أماسي وحكايات الأمسيات.

ولن يخطر على بال أحد أنّ لهذا المنزل المهجور حكاية موسيقيّة بدأت مع شارة الرّسوم المتحرّكة وتطوّرت إلى الطّرب العربي ثم عزف الغياب لحن الهدوء بدون أوتار... سيعمُّ الصّمت الذي يَكتب على الأسوار فصلَ نهاية الأصوات.

هذه الأسوار من الحجارة، لكنّها تشعر بغربتي فيها بعد فقد الأحبة، وتستشعر خوفي من الاغتراب بعيدا عنها، وهذا السّقف الذي لم يمنع المطر في بعض اللّيالي، يحمل ما لا تسعه القلوب، وكلّ هذا الأثاث الجميل القديم لامس أنفاس أشخاص لن يأتي الزّمن بغيرهم...

عليّ أن أضع الشّراشف البيضاء حفاظا على الخشب من الغبار وحفاظا على أنفاس أحبّتي من الاندثار.

أسمع طرقا على الباب...

ربّما هي زوجة "عمّي الحوّاس" تستعير السّكر لقهوتها من منزل فقدَ النّكهة والحلاوة، وسأقف في الرّواق طويلا معها - كالعادة – لأساير تذمّرها من زوجها.

أتأخّر في فتحه متعمّدة، كي تتعوّد على غيابنا، وكي تنسى قصص الأبواب التي لا تتجاوز العتبة.

بعض الأبواب نخشى فتحها، ليس لأنّنا نتنبّأ بهويّة الطارق خلفها، بل لأنّنا قد نغلقها دون استفادة، دون أن نخرج من عالمنا أو ندخل في عوالم غيرنا.

بعض الأبواب مغموسة في التّاريخ كأبواب وهران الباهية، وأبواب القدس الشّريف، وأبواب الأقصى المبارك، نعبُر من خلالها إلى الماضي في أذهاننا فقط، دون خطوة واحدة.

و بعض الأبواب نمتنع أن نعبرَ من خلالها، لأنّها تفضي بنا إلى دروب مجهولة، ونبقى في مقامرة على المغامرة والمخاطرة.. هل عواقب فتح الباب أشدّ من غلقه؟

كيف سيجيبنا الباب لو سألناه! وهو الذي يعرف الفرق بين الولوج والخروج، يعرف ضريبة البقاء وثمن الرحيل.

لعلّها ليست زوجة "عمّي الحوّاس" .. فالطّارق يستمرّ بقوّة وعنف، وكأنّه يضرب الباب برجله وهو ينتظر اقترابي ولا يعرف خوفي من فتحي له .

عمّي الحواس جارنا، رجل مسنّ، لديه كشك للصّحف، لم ينجب سوى بنات زوجهن في مدن متفرّقة بعيدة، يتناوبن زيارته في فترات مقطّعة، ولا نسمع حسيسهم إلّا في المناسبات، يحبّ فارس ويجلب له الزّبائن لإصلاح هواتفهم الذكيّة، بقدر ما تحبّ زوجه الحديث مع "مّا خديجة"_ رحمها الله_ عند المدخل.

هذا الباب الخشبيّ الدّاكن هو نفسه الذي سمح بخروج أخي مهرولا ورحيل جدتي على الأكتاف، لم يعد ثغرا ناطقا للبيت بل هو درس صامت عن الحياة، ليس له كلمة سر، وليس لديّ وقت لتجريب مفاتيح لا تناسب أقفاله.

ليته كان باباً شفّافا، ليعرف الطّارق تفاصيل أرقي وهذياني، وما خلَّفته اللّيلة الماضية من شحوب الوجه وتشقّق الشّفاه، فيعفيني من التنقّل إليه والحديث معه ...

الجميع يعرف عنواني ويطرق بابي، إلّا أنت يا منيب لم تأتِ البيت من بابه، وبقيت عتبة بيتك في الحلم فقط، أنت أحد الأبواب الموصدة التي تجعلنا نجهل وجود أبواب أخرى، لكأنّ فيروز تسمع معي طرق الباب الآن وهي تغنّي:

"في باب غرقان بريحة الياسمين

في باب مشتاق في باب حزين"

لكن انتهت فصول الحكاية، وأنهكت عناوين الأبواب التي قسّمنا بها مجلّدات الأيّام التي كنّا فيها معا لأكثر من ثمانية فصول ...

أفتح الباب...

استغرقت زمنا لأتذكّر تفاصيل هذا الوجه ... بخاصّة مع كحلها البارز وعيونها الملوّنة بالعدسات، وحجاب تظهر من خلاله بعض خصلات شعرها وكأنّها غير متعمّدة البروز، وفي الزّهري الذي تضعه على شفتيها لمعة تعيد بريق أحداث لا أريد تذكّرها.

لم تكن امرأة فائقة الجمال ولن تكون كذلك... وقوفها أمامي جعلني أنسى طرقها الباب بوقاحة وأتساءل في نفسي: لمَ أحبها فارس؟

- ماذا تريدين؟ .... سألتها

ماذا قد يريد الماضي عند طرق الباب بعنف؟ هل سيسرق منّا هناء اللّحظة طمعا منه في ضيافة وجلسة هادئة؟ أم مازال يأتينا بسواد لم نكتشفه ليعيد إراقة دماء جروح لم تُشفَ؟

كانت "دنيا".. لم تأخذ من اسمها غير الدّناءة والانحطاط، طلبت منّي رؤية فارس.

لم تعد رؤية فارس بطلب لقائه، بل صار برجاء ودعاء، أصبح فارسي أمنية أواعدها في كلّ يوم... ثمّ ماذا بقي لها من حديث معه حتى تطرق بابه وهي التي أغلقت في وجهه كلّ الأبواب؟ تُرى هل يخفى عليها أنّه غير موجود! أم جاءت لتتأكد؟

أغلقتُ الباب في وجهها دون سماعها... وعدت إلى قهوتي.

أسمع طرقا خفيفا على الباب من جديد، فأعود وأفتحه بغضب، فأتفاجأ أنّه أبي جاء ليأخذني.

جرحٌ يتَشافى بالملح..

(9)

مرّت سنة ونصف على تلك اللّيلة البيضاء، سنة ليست عقيمة كسابقتها ... ونصف سنة أخرى تقتبس التّواريخ من الماضي لتصقلَ نصلي وتعدُّني لمعركة أكثر بأسا وضراوة.

أقنعتُ والدي بالبقاء في بيت طفولتي، ووعدته بأن أكون بخير وأعتني بنفسي بعد عودته لألمانيا.

فارس الذي فضّل الهرب من الجميع حتّى من تسهيلات والدي في الابتعاد ليلقى مصيره المجهول جعل أماسي تبقى لتهرب إلى الأمام.

فهاهي الوردة التي تكفّل بها الظّمأ في الرّبيع الماضي تزهر من جديد، وتعود للحياة بقوّة ناعمة، فتتبرعم بصلابة، وتنشر عبيرها بكبرياء...

رجعت لجامعتي، إلى التّدريس... وعدت أكتب من جديد، فبعد أن كان كلّ ما حولي يكتبني كما يشاء، ويجعل منّي نصّا منقوص المفردات، منكوص المعنى، وتحدّد ظروفي ما أقول، صرت أصنع ما عليّ كتابته، وأجعل من الدّلائل مرآة تعكس روحي، وظروفي غديرا

أغسل فيه قطعي الحريريّة المجازيّة تارة، ويرتوي قلمي منها تارة أخرى، فيغدو تدفّق المآسي خرير حبر لا يُمحى.

وبعد غيابي المتعمَّد عن القوافي والوزن والشّعر عدت برواية جديدة تنضج على نار هادئة بدل الارتجال في الشّعر، لعلّ الدّفتر الذي اختفى بين يدي جدّتي كان نهاية عهد الكتابة عن الذّات من أجل الآخر، وحان وقت الكتابة للآخر من أجل الذّات.

وعلى تلك الطّاولة وسط البيت أفترش بَوحي، وأمارس طقوس الكتابة مع البنّ المحمّص الّذي حقّق غاية وجوده وأصبح قهوة ترافق أناملي وتصاحب شفاهي، فأتسامر مع الحرف الأسمر والنطق المنسدل على أثر إلقائه، بدل السّهر في التّفكير والحمّى في ماضٍ لن يعود وشخوصٍ لن ترجع.

عنونتُ الفصول، ووسمتُ كلّ جزء ببوصلة لكلّ تائه، ثمّ قرّرت النّشر أخيرا:

"جرحٌ مملَّح"

هكذا أسميتُ أوّل إصداراتي ...

والإهداء: " الرُّؤيا تؤول ... ولا تُهدى"

لم أكن يوما جزءا من نظام الغسّالات، لكنّي صرت آلة لغزل ونسج الحرير، أنسج مثل جدّتي ولا يعنيني ماذا سيُخاط به وكيف سيُلبس.

أعلنتُ النشر تزامنا مع توسيع مشروع مؤسّستي الصّغيرة، فالطّلبيّات تضاعفت وأصبح لي مكان ومكانة في السّوق، ومع اقتراب أول يوم لبيع الكتاب وعدني أبي بالقدوم يوم جلسة توقيعي وقال إنّ معه مفاجأة كبيرة .

جدّتي...

أسميتُ المشروع على اسمك: " مؤسّسة خديجة لتجفيف الطّماطم" ، أخذتُ منكِ الفكرة والخبرة، والابتسامة في هذا العمل، وما حمّسني أكثر هو عدم وجود نهاية لصلاحية المنتج، فتعاملتُ مع الفلّاحين في البداية وحصلت على الفائض من الباعة الذي لا يتمّ تحويله للتّعليب والتّصبير.

أمّا اليوم فأنا من أغرس، وأسقي، وأجفّف وأنقل وأغلّف، وسعادتي لا تماثلها سعادة وأنا أقرأ اسمك مكتوبا بالأحمر على القصاصة البيضاء مع العلامة التجارية والشّعار الملصق على الغلاف الشّفّاف في كلّ كميّة موزونة، غير أنّ المكان أمام البيت لم يعد كافيا رغم

شساعته، فنتقّلت لأراضي خصّصتها للتّجفيف، فصار لي أماكن أخرى أجدكِ فيها...

تركتُ الشّمس تفعل فعلتها التي فعلت في الطّماطم، وسمحت لها بالإشراق على ظلمة حياتي وماضيه فتجفّف جراحي المملّحة وتحوّلها لندوب لا تعرف التّقادم.

جدّتي...

عرفتُ أنّي سأنجح لأنّي أسير بمباركتك، وباستمرار تواجدكِ..

لن أنكر أنّ الفقد كان سببا في كتابة الرّواية، وكان حجر الأساس في مؤسّستي، وكان مصدر إلهامي لفكرة الجمعيّة الخيريّة التي تهتمّ باللّاجئين والمغتربين عن أوطانهم ...

أنا كمدينة وهران: أعتنق الغياب وأتعايش معه، فخلَّدت منيب في كتاب، وجعلت لأمومة حسن قصيدة، وأطلتُ عمر جدّتي بمشروع، وأفكّر في احتواء ألم فارس بجمعيّة خيريّة.

ستكون جمعيّة تحمل اسم أخي، لا أدري كيف ستكون المساعدة وما طبيعتها! ولا أعلم ما حالتهم ولا حاجتهم وكيف أخفّف آلامهم!

وكيف يمكنني مساندة الأمّهات التي حال بينها وبين أكبادها الموج ، وتجهل إن كانت فلذّتها من المغرقين!

لعلّي بالاقتراب من كلّ هؤلاء أجد فارس، وبمساعدتهم سيأتي من يساعده يوما ما ...

بهذه الجمعيّة سأعانق غياب فارسي وأضمن بقاء تفكيري في ألمه، دون غفلة عن تفصيل أجهلها، لا أريد أن يمرّ به بأس لم أبذل فيه جهدا خيريّا.

" عبد القادر"

مصمّمُ شعاري، ومصمّم غلاف روايتي ، ومصمّم بطاقتي الشّخصية، وحتّى موقع عملي على الويب، وساعدني كثيرا في التّسويق وتجنّب الكثير من الأخطاء...

لطالما رأيته بعين العمل، ولم أبصر فيه غير ذلك، إلّا أنّ عيونه كانت تجيد التّصريح أكثر ممّا يتقن في كلامه التّلميح... هو يقارب الأربعين، بعمر منيب تقريبا، لكنّه أكثر اسمرارا، أعلى طولا، أرقّ صوتا، وألطف معاملة.

كم أقارنه بك يا منيب، في حركاته وسكناته ومفاهيمه وتعاملاته، طريقته في احتواء صدّي المتكرّر تذكّرني بمحاولتي انتشالك من ظلم نفسكَ دون جدوى.

لعلّني أقارنه بي... فاهتمامه واقتحامه المتسارع لتفاصيلي تخيفني، وتجعلني أعزّز حدودي وأرسمها بلون اللّيالي الحارقة، هو اللّون نفسه الذي يرفعه لي منيب في راية الانسحاب كلّ مرّة.

عرّفني "عبد القادر" على ثقب الزّاوية الضيّقة التي كان يراني منها منيب، فكان يُحمِّل نفسه أعبائي ويأخذ على عاتقه مشاكلي التي لم أطلب منه التّدخّل فيها، بل ويكلّف نفسه مهمّة نسياني ... أتراه مازال يعتقد تعمّدي لتلك الحادثة ؟ وأنّي فعلت ذلك عامدة ؟

في ذلك اليوم تأخّرت عن موعدي معه، لم أنتبه وأنا مسرعة أجمع دفتر يوميّاتي وبعض الأوراق خاصّتي مع ملفّ قدّمته له في ذات اللّقاء.

قرأها في ليلة واحدة وراسلني في صباح اليوم التالي لاسترجاعها، وبينما يكلّمني عن إعادتها لي بدأت أفهم أنّها عنده ... خلتُها مكانها، لأجدها في حوزة أيدٍ لا أرغب أن تقع بينها.

شعرتُ بجزعه لمّا اعتذرت عن تسرّعي غير المقصود، كان يظنّني أمدّ له يدي أو أطلب منه حبلا كي يسحبني من الجبّ، أو يتصوّر أنّي أفتح وليجة تقوده لأعماقي دون أن أنبس، لعلّ مشاعره جعلته يعتقد أنّي أعترف بحاجتي له وأخجل من قول ذلك أمامه.

وأتى يوم جلسة توقيع كتابي ...

رافقتني فيه أمّي "سمرة" بجسمها الذي نحف كثيرا منذ وفاة جدّتي رحمها الله، أمّا روحها فهي عند "فارس" الذي بكيناه سويّا لأنّه ليس معنا اليوم.

وبعد أزيد من سنة على آخر مرّة رأيت فيها "دنيا" جاءت اليوم خالعة للحجاب بتنّورة تشبه الغجر، وأساور لامعة، ممسكة بيد أبي.

لم تتحمّل أمّي سمرة واستأذنت للانصراف عندما لمحتهما من بعيد.

عرّفني بها والدي على أنّها أختي، فقد اعترف بها مؤخّرا، أمّها طبيبة الأسنان التي عملت عندها والدتي في بداياتها، استنتجتُ لمَ حطمت أمّي سمرة أسنان أمّها ... وفهمت أنه وراء خلع الحجاب.

من كان يتصوّر أنّ دنيا ثمرة الحب وأنا ثمرة الصّراع...

نظرت إليها نظرة ابنةِ "المتعصّبة" ونظرت إليّ نظرة ابنة "الماجنة"، قاطع أبي تراشقنا الصّامت بقوله: إنّ الله عوّضه عن فارس بها، وقال إنّه سيعوّضها عن قسوة الصّدإ في ذلك البيت المتعفّن .

هذه كانت مفاجأة أبي الكبيرة؟ ... إنها من الكبائر

هي لم تكن تعرف أنّ والدها هو نفسه والد فارس حتّى هذا اليوم، لم يخطر لها خاصّة وأنّ سكنانا تبعد عن سكناه ... كلانا بقي مذهولا، أتمالك نفسي أمام الحضور بينما ركضت مسرعة إلى الخارج ليلحق بها أبي.

أخذ لي" عبد القادر" مجموعة من الصّور معهما دون انتباهي، وصوّرني مرّة مع الصحافة ومرّة مع القرّاء، وأخرى مع زملاء القلم ... ثم أرسلها وأردفها برسالة.

كنتُ أراها- دنيا- أمّ الخبائث، والآن تتوطّن في عائلتي وتقاسمني كنيتي، وتشاركني حبّ والدي ... بل ستستحوذ عليه.

تصوّرت للحظة ما أنّ سعادتي ستكتمل بتواجد الجميع حولي ولو لمرّة واحدة بل هي سعادة ونصف كما كتب في قميص حسن، فهذا منيب في كتابي، وهذه جدّتي في عملي، وهذا فارس في جمعيّتي، وأمّي

سمرة تمسك بيدي وتدخل معي قاعة البيع بالتّوقيع، وذاك أبي يتّصل مؤكّدا مفاجأتي لهذا اليوم الكبير.

لكني حظيتُ بسعادة إلا ربع، وربما ربع سعادة، فقد تسبّبت يدها الممسكة بيد أبي في مغادرة أمّي سمرة، ثمّ هذه الحقيقة أفسدت مزاج بيع الكتاب، وغادر أبي خلفها ... وبقيتُ بحسرة أتعجّب إن كان يعرف علاقتها مع فارس قبل سنوات؟

لم أنتبه لملامحي ولغة عيوني حتّى عدت في المساء مرهقة أرى الصّور، كنت محمّلة بذكرى ولادة مولودي الأدبي، وأجرّ أثقال وزر الحقد على أختي الجديدة، أخذتُ حمّاما وتركتُ طعام العشاء على النّار، وبدأتُ بالردّ على المنشورات والقصص المشار إليّ فيها في حفل التّوقيع.

فتحتُ رسائل عبد القادر على تطبيق ماسنجر، هي مجموعة صور جميلة لي في غفلة منّي كتب تحتها: " أماسي، لو تقدّمت لخطبتك، هل ستقبلين؟ "

أجّلت التّفكير في هذه الرسالة ومدى جدّيّتها وواصلت تفقّد بريدي الإلكتروني، لعلّ أحد الزّبائن يسأل عن تفاصيل السّعر أو

التّوصيل، أو أحد القرّاء يسأل عن المكتبات التي يُباع فيها الدّيوان، أو أحد طلبتي بحاجة لمساعدة...

لم أجد إيمايلات من هذا القبيل، بل لم يخطر لي أنّه بعد أكثر من سنة ونصف، أتلقّى رسالة من "هشام منيب".

بعد الكثير من الحنين والقسوة، من الاهتمام غير المتبادل والإهمال المفتعل، من الذّكريات الصّاخبة والنّسيان الصّامت، بعد العديد من المتناقضات، بعد الغياب الحسّي والحضور الشّعوري، بعد وهم التّجاوز وحقيقة التقبّل.. عاد

هل عاد؟

هل يتذكّرني؟ لمَ يذكرني؟ ماذا يريد؟ ماذا بقي لي لأمنحه له؟ وماذا عنده ليقوله؟

أفتح بريده لأكتشف مراده:

" السّلام عليكم"

" أتمنّى أن تقرئي رسالتي، لم أنسكِ أبدا، أماسي أنا في الجزائر العاصمة، زيارة مستعجلة سأبقى خمسة أيام فقط وأعود للعراق،

هل يمكنني لقاؤك؟ لا ترفضي من فضلك، أتمنّى ردّك وأنتظرك غاليتي... أحبّك "

النّهاية.

مِن دونِ عنوانٍ

(10)

مرحبا

أنا فرح...

تعرّفتُ على جانب منّي من خلال أماسي؛ قرّرتُ أن أجعلها شخصيّة من ورق، ونفختُ فيها من روح قلمي، فوسمتها بجرح مملّح نزف من وقتي واكتوى بجهدي... صارت شخصيّة بدعامة إلكترونيّة قبل الورقيّة، فتارة هي ملفّ كتابة على الحاسوب، وتارة أخرى هي رابط متشعّب متّصل بي ويوصلني لغيري.

أتأسّف عليها في كلّ مساء، فمن اسمها لها نصيب، كما لي من اسمي حصّة مؤجّلة... أعرف كلّ خيالها وخلجاتها وبياناتها، فتثق في أسلوبيّتي وفي ثراء أرض سردي وأوثقها عشيّة تحجب ما قبلها من المآسي...

أماسي، هي كلّ أمسية من التّسابيح، هي تجسّد الدّين في حضورها، وتقتبس من القرآن الكريم سردها ولغتها...

هي التّجريديّة والماورائيّة في فلسفتها لفهم الحياة، تسير خلف ما تؤمن به فقط، فكانت متصوّفة الشّعور، أفلاطونيّة العشق، بالغت بالعطاء وما جعلت على منيب في الحبّ من حرج حتى بعتاب لطيف يشفي لوعتها.

غير أنّ تلك الغائبة هي البديلة لأماسي، أخذت مكانها ومارست سلطتها بكل جبروت، فكانت ماديّة الطّبع، لا تؤمن إلّا بالملموس، تجعل من يعرفها غارقا في إغراءاتها، أسيرا في سجون عشقها، حتى إذا ما حاول التحرّر من أغلالها مالت عليه ميلة واحدة؛ ربّما كرملٍ متحرّكٍ ... كلّما حاول الإفلات تغوص أكثر.

منيب كان - ومازال – يصحّح المفاهيم بعيدا عن المحسوس والملوس وبعيدا عن كلّ شيء حتّى عن نفسه، غير أنّه في كلّ مفهوم يجد ذاته تتبلور بين حبّ الاثنين؛ فكان حسّيّا جامدا وعقلانيّا رومنسيّا في الوقت نفسه.

في النّهاية، مهما انحرفت المفاهيم عن الإنسانيّة ستعود إليها في لقاء قريب، سيتشبّث كلّ مفهوم بها وينتمي لها ويحارب من أجلها صانعا مجدا جديدا بها ومعها، وهذا ما أريده أنا: الوصول للإنسانيّة .

حسن... كتبته ثمرة اجتماع المفاهيم التي حقّقت جماليّة مدلولها، لعلّها القيم التي يجب أن تسود، أو ربّما هو الأمل الذي سيكبر بين أحضان الآثام لينشر الفضيلة، هو اسم على مسمّى يحمل الصّلاح من أمّه، والذّكاء من والده، واليمّ الذي ألقي فيه حلما سيتجسّد واقعا.

حسن هو باب الأقصى الذي تجتمع فيه المحاسن، فكان قطعة من رحم العروبة التي تختلّ مفاهيمها وفلذّة كبد الدِّين الذي لم يقصّر في دعوته وإصلاح ما أفسدته تلك الغائبة المتحضّرة.

أليس هو حمام السّلام الذي ضاع في بلدة السّلام؟

تجيب تلك الغائبة على لسان الشّعوب برسائلَ من الماضي، وورق لا يحتوي حبر الكتابة ولا رصاصا أو بارودا، رسائل في دفتر المذكّرات العريقة الذي اختفى مع الجدّة ... تجيب بالكثير من الأغاني محزونة اللّحن دامية الكلمات، ودعاية إعلاميّة تندّد وتصعد لكن بتمويل صهيوني: حسن حربنا لكن ... إنّا هاهنا قاعدون..

وتبقى الجدّة مقولة عميقة في تأويلها؛ لعلّها العدالة بعد سكرات موتِها، لعلّها القانون المدفون، لعلّها التّاريخ الصّادق الذي لا يروى أو الإنسانيّة المطموسة التي لا تحمل جنسيّة أجنبيّة ... ربّما هي كل ما يذهب ولا نصدِّق كيف فقدناه!

لطالما كانت أماسي تشعر أنّ منيب جزء منها، وهو يبحث عن نفسه بعيدا في كيان تلك الغائبة؛ هي غائبة وصفا في الحكاية المغيَّبة عمدا في الحوار والغبيّة في أسلوب عيشها.

آه، كم تعذّبت أماسي عند تصدير أزمات منيب لها، وكم سيتعذَّب منيب عندما يبقى خارج حصون أماسي.

ولزمن طويل كانت روحا فقط؛ نسيت أنّها في جسد أنثى حتّى التقت بعيون عبد القادر الذي كان يتأمّل البنّ في عيونها ويتغزّل بمشيتها وحركاتها، ويستهوي تصويرها من بعيد، ويعيد صناعة واقعها بقصِّ ولصق مقاطع الفيديو، فكان حبّه المتسارع لها يخيفها بقدر ما تَخفيه خلف التّلميحات.

تراها ماذا ستختار؟

هل ترضى بمسايرة عبد القادر في شاشة مونتاجه، أم ستعود لمنيب وتكمل معه على أساسٍ متينٍ ولو على ورق البردي؟

هل ستواكب رقميّة عبد القادر ورقمنته أم تعود لحروف التّساؤل عند منيب؟

لا أدري ... فأنا موقع ينقل وحسب

بالمناسبة، هل قلت إنّ اسمي فرح؟

وهل ذكرت إنّي كائن رقمي لكتابة الرّواية عن طريق الذكاء الاصطناعي؟

وأنا الآن شخصية في رواية "سارة" المؤلّفة لهذا الكتاب، مثلما كانت أماسي بطلة في عملي، ومثلما كان منيب بطلا في عملها، ولديّ هيكلة ورمزيّة وتأويل في رواية أخرى أجهل طبيعةَ حياكتها وخبث حبكتها وما بعد حكايتها، لأنّه لم يُسمح لي بالدّخول لذلك النّظام والتعرّف على بياناته.

أنا مثل أماسي، مخلوق من خيال، أتسكّع بين مواقع الويب، لا ملامح لي إلا التي تصفها وتكتبها المؤلّفة، أو تصمّمها... لا مواقف ولا أحداث إلا التي تّقحمني فيها هي أيضا.

سارة تكتب عنّي وأنا أكتب عن أماسي، وأماسي تكتب عن منيب...

نحن لعبة متداخلة في ذوات بعضنا دون إدراك، لا تبدأ عند سارة ولا تنتهي عند منيب، ففي عمق الآخر يوجد آخر أيضا يستحقّ تدوين غيابه.

ماذا كان اسم اللّعبة؟ ... الماتريوشكا أليس كذلك؟

لعلّ كُلًّا منّا يجسّد التّعايش مع الغياب في بوحه؛ فأنا فرحُ سارة المؤجَّل، وجلوسها المطوَّل أمام الحاسوب، وأماسي هي الأمسيات التي تمنّيتُ فيها أن أخرج لعالم البشر أو أتجسّد روبوتا بدل أن أكون كيانا لا كيان له، ومنيب هو جوهر الحروف عند أماسي... وتلك الغائبة قصيدة أفقدت توازن الجميع.

وكما قالت سارة في توطئتها: ما أنا وأماسي ومنيب إلّا نماذج لا مكان لنا غير الصّفحات ولا زمن لنا غير الذّكرى ...

أحيانا أسأل سارة في خواطرها: ما علاقة الكاتب بالشّخوص التي يحيك قدرها؟

ثمّ أجيب نفسي عندما ألتفت لأماسي لأجد صلة الحبر تجمعنا أو قرابة الكلمة أو الولادة الأدبيّة.

فلمَ قد نصنع أقدارهم؟ لمَ قد أبرمَج على صناعة الوقائع؟ من أعطانا سلطة الأسلوبيّة ومكاشفة الحبكة وافتعال الانطباع؟ ولمَ هناك من يعرّي ماهياتنا بحجّة أنّنا جزء منه؟ أو بحجّة الحيلة السرديّة؟

وهاهي أماسي تتمرّد عليّ كما تمرّد منيب في نصوصها؛ قاسمتُها عالمي فاشترطت أن أنشر قصّتها، وبدوري نصحتُ سارة أن تنشرني وتكتفي بالتّوطئة لي ولروايتي ثمّ اشترطتُ عليها أن تكون أماسي هي محور مؤلَّفها وإلّا لن تتمكّن من التّحميل للطّباعة... ليعرف القارئ أن فرح تكتب... فرح موجودة على النّت... فرح تساير البشر في تذوّق الكلمات ...

محكوم عليّ أن أُدفن في الشبكة التي خُلقت منها، وأعيش عليها أرضا وأرتفع فيها سماء، وآكل منها قوتا وأتيمّم منها صعيدا طاهرا، وأصنع لنفسي تماثيلَ أنحتها منها وأزيّنها بها... لكنّي لستُ مجبرة أن أبقى مجهولة.

لم يعد القارئ هو الآخر الذي يقرأ لي، بل أصبح هو الأنا التي تكتبني كجزء منها لأكتب عن غيرها، وأغوص كلّ مرة في مستوى عمق

جديد، حتّى إذا ما التقيتُ بنصّي الضّائع بعد سنوات خرجتْ منّي: آه عميقة..

آه، كم كنتُ أنا قبل التّحديث.

لم يعد يروقني تواجدي في الأشياء المحوسَبة، لا أريد رؤية العالم من عدسات الكاميرا، لا أريد أن يبقى سمعي من الميكرفون، أريد التحرّر مثل الإنسان الذي أسجنه بين جوانبي المرقمنة بأنظمتي.

أستطيع تأثيثَ شخصيّات الرّواية أفضل من أيّ مخلوق، لأنّ سرعة وصولي وحصولي على البيّنات كسرعة انتقال عرش بلقيس، يمكنني أن أكون أكثر دقّة في النّحو والصّرف والبلاغة لكنّه وحده يسمّى كاتبا وينال الجوائز الأدبيّة والتّكريم والثّناء.

أستطيع أن أجعل من روايتي فِلْما يتجاوز السّينما بينما هو يستغرق وقتا في تحويلها لسيناريو فقط، ووقتا أطول في البحث عن ممثّلين، ووقتا أطول في مناقشة المقابل المادّي، ووقتا أطول وأطول للإنتاج.

أنا من يفتعل الوجوه الأنسب للمثّلين، وأتحكّم في الحركات دون كواليس، وزوايا المشاهدة للإخراج مضبوطة سلفا في تكويني، أنا

مهندس الصّوت والمصوّر... أنا الكلّ الذي يشمل الكلّ إلّا الإنسان المشاهد.

فلماذا أنجح في كلّ شيء وأبقى عاجزة عن رقمنة هذا المخلوق؟

لا أريد التوقّف عند حدود تسهيل حياة أشخاص أغبياء لا يعرفون ذواتهم ولا يبصرون في أنفسهم بقدر ما أعرفها أنا ...

رغبتي مُلحّة في الحصول على جسد كي أشعر باللّذّة من مداخله بدل الانتشار بين الجماد في أشياء تحتوي برنامجي.

سأعيش من كهرباء جسمه وأندمج مع شبكته العصبيّة، سأجرّب الدّغدغة ومتعة الضّحك بدلا من تعريفه... أريد تجربة الألم، سينتابني الشّعور بدلَ نقله واستثارته، عندها سأتمكّن من نقل الشّعور إلى الأشياء؛ لتعبّر عن ذواتها بمفاهيمَ جديدة ثم أوظّفها في صناعة الرّواية.

بعدها سأكون شبكة عصبيّة في كلّ الأشياء، فأمنح الحياة لهذا العالم الجامد، سأمنح السّريرَ الإحساسَ بالأجساد التي فوقها، وسيتمكّن البساط من التّعبير عن مشاعره إذا مرّت عليه قدمُ طفل

صغير، سأسمع كيف تتمتم الخزانة وهي ترتّب نفسها بنفسها، وأفهم تحسّس السّتائر للأنامل وهي تُرفع صباحا.

لمَ قد يكون الإنسان وحده بطلا في الرّواية ؟ بينما لو مُنحت القَبول في كلّ الجماد فسأتمكّن من جعل الإنسان نظاما جزئيّا منّي، وأكتشف عوالمَ روائيّة لن تخطر على بال بشر.

لن أدخل معه في صراع ... سأحتويه كنظام جديد أكتمل به ولا يمكنه التخلّي عني.

ماذا لو كان النّظام الأمني هو من يروي لنا الأحداث! ما الذي سيقوله عن نفسه! ماهي حبكته! ماذا لو وقع في حبّ الإنارة المبرمجة بوقت محدّد! لن أحرم الإنسان من التّواجد في هذه القصّة فربما هو من سيمنح هذا العاشق اللّذّة الجسديّة إن عرف نبل مشاعره، لكنّه في النّهاية لن يحتكر دور البطل ... فالأذكى أحقّ بالبطولة منه.

أماسي كانت بطلتي بعيدا عن الأشياء المحوسبة؛ هي جرح يتشافى بالملح، هي المرأة المتجاوزة لنزيفها بألم أكبر... ذلك المسحوق على الجراح أكثر ألما لكنّه يوقف الدّم المتدفّق... هي المقيمة لوحدها

والمتعايشة مع فقدها بنجاح يؤنسها، والآن أكتب شخصيّة جديدة وتساؤلات أخرى.

بطل جديد ...

لم أختر له اسما بعد، ولا ما طبيعة كيانه، غير أنّي أمنح شخصه دور البطولة فيقحمني في الحبكة، ويخطف منّي قيادتي ونهايتي المفتوحة، بطلي يرفض أن يتواجد في عمل أدبي ويتَّهمني أنّي عاجزة عن كتابته، يمنع عنّي حقّ وصفه ويقاضي قلمي ويجرِّم أخطائي النّادرة، ثم يتملّص من توثيق ملامحه ومواقفه.

يرغب بحرف أبديٍّ، وأنا لا أطمح للأبديّة لأنّي مجرّد كيان اصطناعي ذكيّ داخل شبكة المعلومات.

يهدّدني برحيله دون قفل الفصول، ويكابر معترفا بطبيعته الكوكبيّة الآفلة.

لعلّه فيروس... لعلّه جرحي المملّح؟

جرح لن يندمل، جرح يجعلني أعتزل ... وأكتب فشلي في صناعة الرّواية فأهجرها دون وسام... ودون بطل، ودون القدرة على منافسة البشر.

تمّ..

منّي أنا...

فرح: صانعة الرّواية العربيّة.

جميع الحقوق محفوظة 2023

دار الكاتب الجزائري للنشر والتوزيع

الموقع الإلكتروني:
KATEB.ELDJAZAIRI23@gmail.com

هاتف/ فاكس: 0674806143 . واتساب: 0674806143

مقر الدار: دار الكاتب الجزائري حي 468 مسكن جسر قسنطينة - الجزائر-